سامي مروان مبيض

شرق الجامع الأموي

الماسونية الدمشقية ١٨٦٨ - ١٩٦٥

المحتويات

مقدمة

خلال سنوات الطفولة والشباب سمعت الكثير من الروايات عن الماسونية وتاريخها في دمشق، بعضها قصص واقعية ودقيقة، والبعض الآخر كان من نسج خيال الدمشقيين. كانت الروايات أشبه بقصص ألف ليلة وليلة، وقد ينفع أن تكون سيناريو لمسلسل تلفزيوني مشوّق أو رواية بوليسية، فيها الكثير من المكر والإجرام والتآمر. كان هذا في ثمانينيات القرن الماضي يوم كان الناس يتحدثون همساً عند ذكر اسم «البنائين الأحرار» في مجالسهم الخاصة، خوفاً من الماسونيين أنفسهم. لأسباب شخصية، لم تقنعني كل تلك الروايات عن الماسون، فإثنان من أفراد عائلتي كانا من «العشيرة السرية»، جدي القاضي أحمد عزت الأستاذ وعم جدتي أمير الحج

١٢

الدمشقي ورئيس مجلس الشورى عبد الرحمن باشا اليوسف. الأول دخل في عشيرة الماسونية من خلال أحد محافل دمشق المحلية وترقى فيها ليصبح أستاذاً لمحفل أمية الكبير. أما الثاني فقد دخل الماسونية العثمانية من خلال أحد محافل عاصمة الخلافة الإسلامية عام ١٩٠٩. وقد أدركت منذ ذلك الوقت أن سيرة الرجلين لا تتناسب مع الانطباع العام عن الماسونيين في المجتمع السوري.

بعد احتلال فلسطين عام ١٩٤٨ صار الناس يصفون «البنائين الأحرار» بالخونة والمشعوذين أو بالجواسيس الموالين للصهيونية ولدولة إسرائيل. وعلى الرغم من أن الرجلين توفيا قبل أن أعرفهما، إلا أنني كنت أعرف سيرتهما الشخصية والمهنية جيداً، كان كلاهما من الوطنيين المخلصين لبلادهم ولدينهم، ولا يمكن أن يكونا مخربين ولا باعثين للفساد. فالأول كان راعياً للفنون، إضافة إلى عمله في المحاكم السورية، وقد أسّس معهد الموسيقى الشرقي مع نائب دمشق وزعيمها فخري البارودي في الخمسينيات. أما الثاني، فقد كان قائداً وحامياً للحجاج الدمشقيين خلال مسيرتهم السنوية الشاقة من عاصمة الأمويين إلى مكة المكرمة. لقد كان كلاهما من أنبل الناس خلقاً أو كرماً وعطاءً.

كبرتُ وفي ذهني الكثير من الأسئلة عن الماسونية وعن علاقتها بدمشق والدمشقيين. هل كان أحمد عزت الأستاذ وعبد الرحمن باشا حقاً من الوطنيين، أم أنهما خائنان لارتباطهما بالماسونية؟ هل غررت بهما الماسونية كما قال كثيرون؟ أم أن الماسونية الدمشقية كانت عبارة عن «موضة» إن صحّ التعبير، دخلها الناس دون معرفة كل جوانبها؟ هل كانت الماسونية

الدمشقية مختلفة عن الماسونية في العالم وبريئة من كل تلك التهم الموجهة إليها وحُمّلت أكثر بكثير من حجمها الحقيقي في تاريخ البلاد العربية؟

خلال سنوات الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت، اكتشفت أن نخبة القوم وأعيان كل من سورية ولبنان في الأربعينيات والخمسينيات كانوا أيضاً من عشيرة الماسون. قرأتُ الكثير يومها واستطعت الوصول إلى آخر الأحياء من الرعيل الأول من ماسون دمشق، هو الدكتور جورج لاذقاني من «محفل سورية ولبنان». كان التعارف من خلال صديق العائلة الطبيب نقولا شاهين، ابن الدكتور أنسطاس شاهين، أحد أبرز أركان الماسونية الدمشقية في النصف الأول من القرن العشرين. كان جورج لاذقاني طبيباً وضابطاً سابقاً في الجيش العثماني، خدم في معارك السفربرلك الشهيرة أيام الحرب العالمية الأولى، وعند لقائي به في دمشق عام ١٩٩٥ كان قد تجاوز المئة من العمر، ولكنه بقي بصحة جيدة متمتعاً بذاكرة حديدية.

طرحت كثيراً من الأسئلة عليه عن الماسونية وخفاياها، عندما صرح علناً بأنه من العشيرة، وأجاب عن معظمها دون ترددٍ أو خوف، مذكراً بأن الماسونيين الدمشقيين هم من أعلن استقلال سورية مرتين: الأولى عن الدولة العثمانية عام ١٩١٨، والثانية عن الانتداب الفرنسي عام ١٩٤٦. مع ذلك، لم تسعف إجاباته تساؤلاتي كلها، ولم تروِ عطشي لمعرفة المزيد، فإن كان الماسونيون شرفاء حقاً، فلماذا كل هذا التهجم عليهم؟ ولماذا لا يدافعون عن أنفسهم من كل الاتهامات الموجهة إليهم؟ ضحك الدكتور لاذقاني رحمه الله وقال: «عليك أن تقرأ أكثر يا بني لكي تعرف الحقيقة».

تبين لاحقاً أن أحد أساسيات الانضمام إلى الماسونية هو شرط عدم التبرير للآخرين أو الدخول في سجال عن الماسونية مع من هو خارج هذه الأخوة.

بعد اثنين وعشرين عاماً من ذلك اللقاء، أحاول الإجابة عن بعضٍ من تلك الأسئلة في هذا الكتاب، المزوّد بكثير من الوثائق والمستندات التي قمت بجمعها خلال السنوات الطويلة الماضية، بعضها مأخوذ من أرشيف المحافل العالمية نفسها، والبعض الآخر من الكتب والدراسات، دون الدخول بأي استنتاجات، لا دف٦اعاً عن الماسون ولا تحقيراً لهم، لأننا في الحقيقة ما زلنا حتى اليوم لا نملك إلا نصف الحقيقة في هذا الموضوع، والنصف الآخر هو عبارة عن مجرد تكهنات أتركها لكم للإجابة عنها.

سامي مبيض

دمشق، ٨ أيلول ٢٠١٦

من هم ماسون دمشق؟

في تسعينيات القرن المنصرم كانت كتب الماسونية هي الأكثر مبيعاً في المكتبات العربية، وقد كان هذا الموضوع مشوّقاً للغاية، لدرجة أن السواد الأعظم من الناس يدّعون أنهم يعرفون الكثير عنه، من سائقي السيارات العامة في شوارع دمشق وبيروت والقاهرة، مرورًا بأساتذة الجامعات والكتّاب المرموقين، وصولاً إلى رجالات الدولة والسياسة. ولم تتوقف دور النشر العربية عن إصدار مؤلفات عديدة عن هذا الموضوع على مدى أربعة عقود متتالية من الزمن، ولم يكن يضاهي تلك المؤلفات في المبيع والرواج إلا كتب الطبخ والأبراج والجنس والدين.

ففي معرض الكتاب السنوي بدمشق مثلاً، الذي كان يُعَقد تحت رعاية رسمية من وزارة الثقافة السورية، كانت رفوف العارضين من دور النشر

تغصّ بكتب عربية عن الماسونية، يتشابه معظمها في ما يحمل من رسوم على أغلفتها تحتوي على أدوات الماسونية وشعاراتها مغمسة بما يرمز إلى الدم العربي جنباً إلى جنب مع نجمة داوود. وقد اتهمت معظم هذه الكتب الماسونيين باختراق الإسلام وتدميره منذ مقتل الإمام علي، وبإسقاط الدولة العثمانية، وباحتلال الفرنسيين لسورية والبريطانيين لمصر، وبسلخ تركيا للواء إسكندرون عن سورية عام ١٩٣٩، إضافة إلى جزم كل هذه الأدبيات بأن الماسونية كانت وحدها وراء احتلال فلسطين وقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، واحتلال بغداد عام ٢٠٠٣. بعدها جاء وثائقي موجه لقناة الجزيرة القطرية في نهاية التسعينيات ليعزز كل تلك الشكوك ويزيد من كراهية العرب للماسونية.

في السنوات الخمس الماضية ظهرت عدة دراسات إضافية توجه أصابع الاتهام إلى الماسونية العالمية في بثّ الفوضى والخراب من خلال ما يُسمى «الربيع العربي»، لتقول إن أساطينها كانوا وراء سقوط أنظمة الحكم في كل من تونس ومصر وليبيا واليمن، وإنهم مهندسو الحرب الطاحنة الدائرة حالياً في سورية.

معظم تلك الاتهامات كانت بأقلام كتّاب يساريي الهوى والفكر، من شيوعيين وبعثيين وقوميين عرب، أو من إسلاميين متشددين، منهم طاقم الإخوان المسلمين في قناة الجزيرة. الجدير بالذكر أنه منذ منتصف الأربعينيات كان إخوان سورية ومصر من أشد أعداء الماسونية بسبب عقيدتها العلمانية الصارخة، وكذلك حلفاؤهم في حركة المقاومة الإسلامية «حماس»، التي تسمي الماسونية بالاسم في ميثاقها، وتعتبرها واجهة للصهيونية العالمية.

في واقع الأمر، إن معظم هؤلاء الكتّاب كانوا يجدون في الماسونية كبش فداء حاضراً ويرّاقاً لتحميله أوزار فشلهم الذريع في الحكم والمعارضة على مدى عقود من الزمن. فمعظم البشر يبحثون دوماً عن شمّاعات جاهزة لتبرئة أنفسهم من الأخطاء ولتبرير ضعفهم وسوء تصرفاتهم، فاللوم عند العرب يقع دوماً على الآخر، سواء أكان حزباً أم دولةً أم عشيرةً سرية، إما على الإنكليز أو الفرنسيين أو الأميركيين أو الروس أو الصهاينة أو على الماسون، وليس على العرب أنفسهم. الماسونية كانت جاهزة دوماً لتحمل كل هذه الاتهامات، ولتبرر عقوداً من الإخفاقات الرسمية والفشل السياسي.

في هذا الكتاب نحن لا نبرئ الماسونية من كل المؤامرات، فبعضها موثّق ومعروف، مثل خلع السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩، ولكن إنصافاً للتاريخ لا ينبغي أن نحمّل الماسونية الدمشقية المحلية أكثر ما تتحمل دون معرفة الشرط التاريخي والظروف المحيطة بأعضائها. الماسونية في دمشق كانت من البداية وحتى النهاية عبارة عن مجموعة صغيرة وضعيفة لتنظيم عالمي، تتبع إما إلى مصر ومن ثم إلى لندن، أو إلى محافل غير نظامية تركية. لم تكن تلك المحافل المحلية، من أمثال «قاسيون» و«سورية» و«نور دمشق» مرتبطة بما يعرف بـ«الحكومة العالمية في الظل» كما يعتقد الكثيرون، والدليل القاطع على هذا الكلام أن ماسون دمشق دمروا سياسياً واجتماعياً وخلعوا عن الحكم مراراً، وصودرت أرزاقهم وطُمست معالم إنجازاتهم، ولم تُرفَع يد واحدة في المجتمع الدولي دفاعاً عنهم وعن عشيرتهم المحلية. رئيس الحكومة جميل مردم بك، مثلاً، كان من الماسون، ولكنه فشل فشلاً ذريعاً في الحفاظ على السنجق السوري عندما قررت فرنسا إعطاءه للأتراك سنة ١٩٣٩، وأخفق مرة أخرى في

الدفاع عن فلسطين حين توليه مسؤوليات حكومته الخامسة والأخيرة عام ١٩٤٨ . الدكتور عبد الرحمن الشهبندر كان أيضاً من الماسون، ولكنه قتل برصاص الغدر عام ١٩٤٠، ولم تستطع الماسونية حمايته من الموت. كذلك الأمر مع رئيس الوزراء حقي العظم، الذي خسر انتخابات الرئاسة مرتين، بالرغم من نشاطه الماسوني العلني. القائمة تطول طبعاً، وسوف نجد شرحاً مفصلاً في طيات هذا الكتاب.

يجد الكتّاب العرب المتوجسون شراً من الماسونية مبرراً لموقفهم في الكثير من الإشارات والرموز الموجودة في الأدبيات الماسونية بغية تثبيت رواياتهم الهادفة إلى النيل من «العشيرة السرية». من تلك الرموز على سبيل المثال ورقة الدولار الأميركي النقدية، بما تحتويه من رموز ورسومات كرسم العين الواحدة (أحد أشهر رموز الماسونية)، ليقال إن الاقتصاد الأميركي يسيطر على العالم، وهو لا يخفي علاقته بالماسونية.

كان الرئيس الأميركي الأول جورج واشنطن ينتمي إلى الماسونية علناً، وقام بارتداء الوِزرة الماسونية في مراحل مختلفة من تدشين معالم مدينة واشنطن، عاصمة العالم الجديد التي حملت اسمه، والتي تمتلئ بالرموز الماسونية كمبنى وزارة الدفاع (البنتاغون). ولم يكن جورج واشنطن الماسوني الوحيد من النخب الأميركية، فالكثير من الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأميركية كانوا من الماسون، كذلك كان بعض رؤساء أميركا في القرن العشرين مثل ثيودور وفرانكلن روزفلت بطل الحرب العالمية الثانية[1]. وفي بريطانيا كان معظم ملوكها كإدوارد السابع وجورج السادس من الماسون، إضافة إلى رئيس وزراء بريطانيا الأشهر ونستون تشرتشل، الذي انتمى إلى محفل

ستادهولم الإنكليزي عام ١٩٠٩. إن جميع من ذكرت أسماؤهم متهمون بالضرورة بالعمالة للصهيونية العالمية في غالبية كتب الماسونية العربية.

إن قائمة الماسون العالمية تطول وتشمل أسماءً كثيرة دخلت التاريخ من أوسع أبوابه، ولا تقتصر فقط على السياسيين والحكام، بل تشمل العشرات من الضباط والموسيقيين، والعلماء والأمراء ورجال الدولة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. فعلى سبيل المثال، كثير من نجوم هوليوود في الأربعينيات مثل دوغلاس فيربانكس، وبطل فيلم «ذهب مع الريح» كلارك غيبل، وكيرك دوغلاس بطل فيلم «سبارتاكوس» كانوا من الماسون، وكذلك نجم الكوميديا أوليفر هاردي (شريك الثنائي لوريل وهاردي) الذي داعب «العشيرة الحرة» في أحد أفلامه الساخرة عام ١٩٣٣ [٢]. كذلك الملحن العالمي موزارت كان ماسونياً هو الآخر، ومعه نخبة المفكرين الفرنسيين في عهد النهضة، أبرزهم الفيلسوف الشهير فولتير، وكذلك المهندس الفرنسي غوستاف إيفيل، باني برج إيفل بباريس وفريدريك بارثولدي مصمم تمثال الحرية في نيويورك[٣].

في دمشق، لا تقلّ قائمة الماسونيين السوريين إبهاراً عن نظيرتها في لندن وواشنطن وباريس. فقبل مئة عام تقريباً، كانت الماسونية ذات شعبية كبيرة في سورية، ضمّت بين صفوفها معظم الآباء المؤسسين للدولة السورية. دخلوا الماسونية لأنهم نخبة القوم لا العكس، لم يصبحوا نخباً وزعماء بسبب ارتباطهم بالماسونية. أحد عشر من رؤساء الوزارة السوريين في عهد الانتداب الفرنسي وبداية الاستقلال كانوا من الماسون، ومعهم ثلاثة من وزراء خارجيتها، وعلى الأقل اثنان من رؤساء الدولة، الزعيم فوزي

سلو والعقيد أديب الشيشكلي. أما رؤساء الحكومات السورية من الماسون فهم: جميل الإلشي وفارس الخوري وعطا الأيوبي وحسن الحكيم وسعيد الغزي وصبحي بركات والداماد أحمد نامي وحقي العظم وجميل مردم بك ولطفي الحفار وبهيج الخطيب. بالإضافة إلى أن من المؤكد أن اثنين من رؤساء الجامعة السورية كانا ماسونيين، أيضاً، ومعهما معظم مؤسسي كلية الطب. وقد سميت شوارع وساحات ومدارس على شرف هؤلاء القامات الوطنية، وبعضهم حظي بطابع بريدي صادر رسمياً عن إدارة البرق والبريد في دمشق يحمل رسمه. ومن خلال هؤلاء الرجال نشطت الماسونية في دمشق رسمياً قرابة قرن كامل، من عام ١٨٦٨ وحتى عام ١٩٦٥، عندما صدر أمر موقع من قبل رئيس الدولة يومئذ محمد أمين الحافظ بإغلاق جميع المحافل الماسونية وحظر نشاط العشيرة الماسونية حظراً كاملاً.

أثارت المحافل الماسونية في دمشق الكثير من الجدل والشكوك لدى عامة الناس، حتى قبل قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. وقد تساءل الدمشقيون كثيراً عن سرية المحافل وما يجري في اجتماعاتها المغلقة. وكانت إجابات الماسون وقتها وحتى اليوم أنهم ليسوا جمعية سرية، بل جمعية «ذات أسرار»(٤). خلال القرن التاسع عشر في بريطانيا، على سبيل المثال، كانت محاضر جلسات المحافل اللندنية تنشر في الصحف الرسمية، وفي دمشق كانت جميع المحافل مرخصة ومسجلة في سجلات الدولة، تدفع الضرائب دورياً مثلها مثل أي شركة أو جمعية أو حزب، وتقدم ميزانياتها السنوية للحصول على موافقات من وزارة المالية السورية(٥). وكان من شروط الدخول إلى العشيرة الحرة حصول طالب الانتساب على ورقة «لا حكم عليه» من وزارة العدل السورية، ليثبت أن سجله العدلي خالٍ من أي جرم

أو جناية أمام القانون السوري. بعد عام ١٩٤٨، ظهرت عدة مقالات في الصحف السورية تتساءل عن مدى علاقة العشيرة الحرة بالدول الكبرى، وكان معظم هذه المقالات قد نشر في صحيفة «البعث» وصحف الحزب الشيوعي السوري وصحيفة «المنار» التابعة لحركة الإخوان المسلمين.

قبل ذلك التاريخ كان الماسون السوريون من نخبة المجتمع السوري، لا يجرؤ أحد على التشكيك في وطنيتهم، وكان بعضهم ينتمي إلى أسر دينية محافظة، بعمامته البيضاء وسجله العلمي الرفيع، والبعض الآخر كان من وجهاء المدينة من الملاكين العاملين في الدولة العثمانية أباً عن جد. أما الفئة الثالثة، فكانت من الطبقة الوسطى من أطباء ومحامين وكتّاب وصحفيين، معظمهم من أبناء المدن لا الأرياف. حتى يومنا هذا، لا يوجد أي قائمة موثقة تظهر توجهاً دينياً خاصاً للماسون السوريين، ولكن بالعودة إلى أسمائهم وأسماء عائلاتهم، نجد لفيفاً واسعاً من المسلمين السنّة والشيعة والعلويين والموحدين الدروز والمسيحيين بكافة طوائفهم. وقد كانت الماسونية السورية تفتخر بأنها جامعة لكل السوريين بمعزل عن دينهم أو عرقهم أو توجهاتهم السياسية والفكرية. وخلال حقبة العشرينيات والثلاثينيات، كان الماسون الدمشقيون يعلقون شهاداتهم الماسونية الرسمية بخطها الكوفي في مكاتبهم ومنازلهم دون أي خجل أو تحفظ، لا يحاولون إخفاء انتمائهم إلى عشيرة البنائين الأحرار.

أما الحفلات ومآدب العشاء الخيرية التي كانت تقيمها المحافل والشخصيات الماسونية، فقد كانت مناسبات علنية تندرج تحت عنوان «أخبار المجتمع» في الصفحات الأخيرة من الصحف الدمشقية، إذ كانت هذه الفعاليات

تعقد غالباً في نادي الشرق العريق لصاحبه الشهير توفيق الحبوباتي، الذي يقع مقابل مدرسة الفرنسيسكان في حيّ الشعلان الدمشقي. كان الناس يشاهدون صور تلك المناسبات في الصحف اليومية ويتعاملون معها على أنها تجمّع لعلية القوم، كأي نادٍ نخبوي، لا يشككون في أحد من أعضائه، لأن قائمة الحضور كانت لا تستثني أحداً من الأعيان الوطنيين المعروفين جيداً في المجتمع السوري.

عند إغلاق المحافل عام ١٩٦٥ تساءل الناس كيف لقامتين وطنيتين مثل فارس الخوري أو جميل مردم بك مثلاً أن تكونا عضوين في تنظيم مشبوه، وكان الجواب المعروف دوماً أن كليهما لم يكن على دراية بحقيقة الماسونية، ولو عرف أهدافها لانسحب منها أو لم يكن لينتسب إليها أصلاً. تؤكد الأديبة كوليت خوري حفيدة الرئيس فارس الخوري هذه النظرية، وتقول إن جدها منع والدها المرحوم سهيل خوري من الدخول في الماسونية، محذراً من أنها منظمة صهيونية بالمطلق، وأنه لم يكن يعرف أهدافها الحقيقية حين انتسب إليها أيام الشباب(٦). الكلام نفسه قاله الأب لويس شيخو، أحد مدرسي اللغة العربية في الجامعة اليسوعية في بيروت، الذي نشر سلسلة مقالات في جريدة «المشرق»، ثم وضع كتاباً قاسياً عن الماسونية بعنوان «السر المصون في شيعة الفرمسون» عام ١٩١٠، حذّر فيه من دخول العشيرة الحرة، متهماً إياها بتشجيع الفوضى السياسية وفرض سيطرتها على العالم(٧).

معظم أوراق الماسونية السورية أتلفها أصحابها بعد أسابيع قليلة من قيام جمهورية الوحدة مع مصر في شباط ١٩٥٨ (٨). كان الماسونيون الدمشقيون

يخافون رئيسهم الجديد جمال عبد الناصر، الذي كان يشكّك في صلات الماسونية الخارجية، على الرغم من أنه لم يغلق أياً من محافل دمشق أو القاهرة، ولم يحظر الماسونية في مصر حتى عام ١٩٦٤[٩]. ولدت الجمهورية العربية المتحدة بعد خمسة عشر شهراً فقط من حرب السويس التي شنتها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر، رداً على تأميم قناة السويس، وكان عبد الناصر يستشيط غضباً من كل ما هو بريطاني أو فرنسي، لكونه أصلاً من أشد المتحمسين للقضية الفلسطينية منذ مشاركته في حرب عام ١٩٤٨. وبسبب تلك الخلفية الفكرية والسياسية للحاكم المصري الجديد، أدرك الماسونيون السوريون أن من الأفضل لهم عدم الدخول في سجال معه، خصوصاً أن من أحيط به من الساسة السوريين كانوا من أشد الأعداء للماسونية، وجاؤوا ليهمسوا في أذنه أن الماسونية العالمية سوف تهدد استقرار جمهورية الوحدة. أبرز المحرضين يومها كان العقيد عبد الحميد السراج، مدير المكتب الثاني في سورية، الذي أصبح وزيراً للداخلية أيام الوحدة، ورئيس المجلس النيابي أكرم الحوراني، الذي أصبح نائباً للرئيس عبد الناصر. بحكم فكره الاشتراكي المتطرف، كان الحوراني يكره طبقة الأثرياء والملاكين السوريين ويحقد عليهم، وكان معظم أعضاء تلك الطبقة منتسبين رسمياً إلى الماسونية السورية، وقد حمّلهم أوزار الفقر في الريف السوري وهزيمة الجيش في حرب فلسطين، وكان عراباً لكل الانقلابات السورية دون استثناء من عام ١٩٤٩ وحتى ١٩٦١.

أدرك الماسون الدمشقيون عدم الفائدة من الدخول في أي جدل مع الحوراني وحليفه السراج، وأيقنوا عدم وجود أي مجال لأي تعاون من الرئيس عبد الناصر، أو حتى في محاولة إقناعه بأن لا علاقة لهم بالصهيونية

العالمية، وأن كل ما أشيع عنهم منذ عشر سنوات عبارة عن كذب ممنهج من قبل المكتب الثاني، ففضلوا أن يغلقوا أبواب محافلهم طوعاً قبل أن تغلقها أجهزة دولة الوحدة الناشئة، وهكذا فعلوا في آذار ١٩٥٨، على الرغم من عدم صدور أي تشريع ضدهم طوال سنوات الوحدة، إلا أن بعض المحافل السورية عاودت العمل بشكل خجول في عام ١٩٦٠، أي خلال سنوات الوحدة[١٠].

أحرق الماسون الدمشقيون آنذاك بعض الوثائق تجنباً للمساءلة السياسية، بينما نُقل البعض الآخر من هذه الوثائق إلى بيوت الماسون، ليُحرق أيضاً بعد سنوات قليلة عند مجيء حزب البعث إلى الحكم في سورية[١١]. مع ذلك، لقد حاول بعض الماسون بناء جسور مع الرئيس عبد الناصر، وقاموا بإرسال عدة برقيات رسمية له عند إعلان الوحدة، نُشرت في جريدة «الأيام» الدمشقية ما بين ٢٢-٢٥ شباط ١٩٥٨. لم تلقَ أي من تلك البرقيات أي ردّ من عبد الناصر، على الرغم من أن شريكه في صناعة الوحدة، الرئيس شكري القوتلي، استقبل وفداً ماسونياً مصرياً في قصر المهاجرين بدمشق قبل مغادرته الحكم بأيام[١٢]. وبسبب الخوف الذي اجتاح المجتمع السوري خلال سنوات الوحدة وفي الستينيات، لم يبقَ إلا القليل القليل من الوثائق الماسونية إلى يومنا هذا. وهذا ما جعل دراسة الماسونية الدمشقية أمراً معقداً وصعباً للغاية، ولولا الوثائق القليلة الباقية وبعض الشهادات الحية لكان هذا البحث مستحيلاً.

لا يوجد أي سجل للعشيرة، لا في مكتبة الأسد في دمشق، ولا في مركز الوثائق الحكومي في فرنسا أو بريطانيا، ولم يأت أي من الماسونيين الدمشقيين على

ذكر انتمائهم إلى «العشيرة الحرة» في مذكراتهم. دولة حسني البرازي، الذي قضى آخر أيامه في بيروت، أجرى مقابلة طويلة لكلية التاريخ في الجامعة الأميركية مُسجلاً على إحدى عشرة ساعة صوتية، ولم يذكر ولو مرّةً واحدة انتماءه إلى محفل العاصي في مدينة حماه قبل توليه رئاسة الحكومة السورية أيام الحرب العالمية الثانية[١٣]. أما الرئيس فارس الخوري، فقد جمعت حفيدته الأديبة كوليت خوري أوراقه وصوره في كتابين قيّمين نهاية الثمانينيات ومنتصف التسعينيات، يحكيان عن فترة الشباب والعمل السياسي حتى عام ١٩٢٥، ولم يأتِ «فارس بك» على ذكر دوره في «محفل نور دمشق» بداية القرن العشرين. حاله حال أقرانه في رئاسة الحكومة السورية، جميل مردم بك ولطفي الحفار وحسن الحكيم وسعيد الغزي وعطا الأيوبي. وقد نشرت مذكرات الحفار ومردم بك في لندن مطلع الألفية الثانية، ولم يأتِ أي منها على ذكر انتماء أصحابها إلى الماسونية، إذ لا وجود لأي إشارة إلى العشيرة، لا من قريب ولا من بعيد. أما الرئيس حسن الحكيم الذي عاش طويلاً حتى العقد الثامن من القرن العشرين، وقام بتأليف العديد من الكتب القيّمة والمذكرات، وهو أيضاً مثل كل أخوته في العشيرة الحرة، لم يذكر الماسونية في أيٍّ من كتاباته. هل كان هذا التستّر الواضح من كل هؤلاء الوطنيين خجلاً أم خوفاً أم حفاظاً على سرية العشيرة أم التزاماً منهم بقسم السرية؟ الجواب طبعاً لا يزال غير معروف.
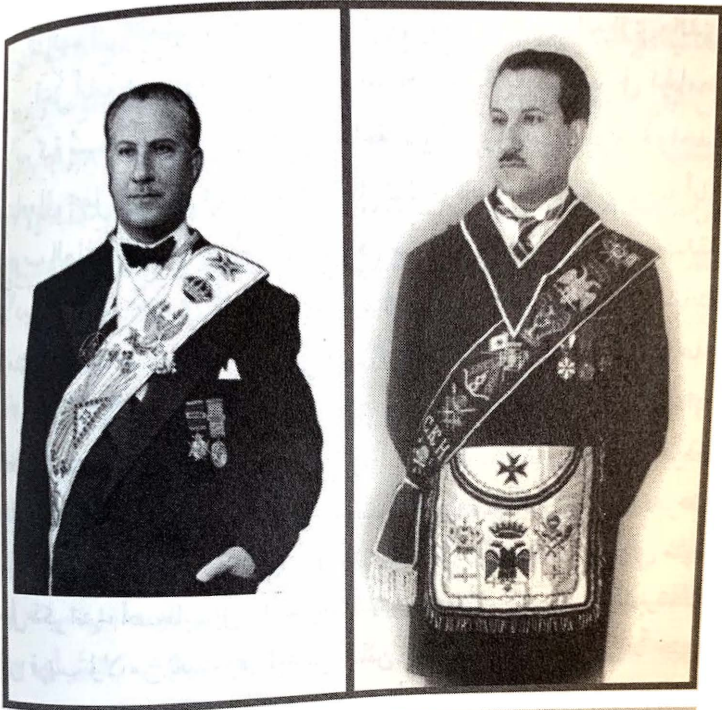
القاضي حنا مالك بلباسه الماسوني الرسمي، في شبابه في العشرينيات وفي الخمسينيات عندما أصبح أميناً عاماً لرئاسة مجلس الوزراء ومدعياً عاماً للجمهورية السورية.

عضوان اثنان فقط من محافل دمشق امتلكا الجرأة ليعترفا على الملأ بحقيقة انتسابهما إلى العشيرة الحرة. الأول هو القاضي حنا مالك (١٩٠٠-١٩٩٢) الذي درس القانون في جامعة دمشق والجامعة الأميركية في بيروت وبدأ عمله في المحاكم السورية عام ١٩٢٥. عُين رئيساً للمحكمة الدستورية العليا ثم مدعياً عاماً للجمهورية السورية قبل أن يصبح أميناً عاماً لرئاسة مجلس الوزراء في عهد صديقه الرئيس صبري العسلي. كان «حنا بك»

رجل قانون من الطراز الرفيع، مُحترماً عالمياً لعلمه وعمله، وهو من أعيان الأرثوذوكس في مدينة دمشق. يصف «حنا بك» في مذكراته نشاطات الماسونية «الوطنية والاجتماعية والإنسانية» في سورية، ويقول إنه ووالده عبد الله مالك من قبله كانا من الماسون، كذلك ينشر صورتين له بلباسه الماسوني الرسمي، وهو برتبة «أستاذ أعظم».

الاعتراف الآخر جاء على لسان رئيس غرفة تجارة دمشق الحاج بدر الدين الشلاح (١٩٠٨-١٩٩٩)، الرئيس الأعظم لمحفل إبراهيم الخليل التابع لمحفل نيويورك الأكبر، الذي أسس في العاصمة السورية في أيلول عام ١٩٢٤ على يد بروفيسور أميركي يعمل مدرساً في كلية الطب في الجامعة الأميركية في بيروت يدعى والتر أدامز(١٤). بقي هذا المحفل الدمشقي نخبوياً ولم يقبل عضوية أكثر من ٨٠ شخصاً فقط طوال فترة عمله في دمشق، كان من بينهم كل من بدر الدين الشلاح وشقيقه أنور، وهو رجل أعمال عريق ووجيه معروف، بالإضافة إلى بعض من علية القوم مثل داوود مارديني ومصطفى القباني والطبيب مصطفى شوقي وعثمان سلطان والصيدلاني خليل الهبل وتوفيق بيضون وعبد الرزاق عابدين ورفيق الجلاد وعبد النبي قلعي(١٥). في مذكراته المنشورة بدمشق عام ١٩٩٠ يبهر الحاج بدر الدين قراءه بصور تذكارية له مع جمال عبد الناصر وأنور السادات وحسني مبارك، والشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، والملك حسين بن طلال والرئيس الأميركي جيمي كارتر الذي زار مزرعة الشلاح في ريف دمشق خلال إحدى زياراته لسورية عام ١٩٨٣ بعد مغادرته البيت الأبيض. ويعرف السوريون بدر الدين الشلاح جيداً، ليس كشهبندر تجار دمشق فقط، ولكن لدوره الشهير في فك إضراب تجار العاصمة السورية المتضامنين مع جماعة الإخوان المسلمين

بداية الثمانينيات خلال حربهم مع الرئيس حافظ الأسد. مرتدياً معطفه الأبيض الطويل وطربوشه الأحمر الأنيق، نزل بدر الدين الشلاح إلى أسواق دمشق القديمة يومها وطرق باب متاجرها متجراً متجراً، آمراً الناس بإنهاء الاضراب، مستفيداً من مكانته عند تجار دمشق وسمعته الطيبة بين الناس.

نشر بدر الدين الشلاح في مذكراته صورتين له بوزرته الماسونية ومريوله الملون، الأولى بالأبيض والأسود أيام الشباب، والثانية وهو قد تجاوز الثمانين من العمر في بيته بدمشق، ضارباً عرض الحائط بما سيقال عنه في المجتمع الدمشقي بعد ثلاثة عقود من تحريم الماسونية في سورية. لم يتعرّض له أحد بعد نشر مذكراته، وبقي الحاج بدر الدين رئيساً لغرفة تجارة دمشق حتى عام ١٩٩٦.

صورة الحاج بدر الدين الشلاح، رئيس غرفة تجارة دمشق. بلباسه الماسوني الرسمي بعد عقود من حظر الماسونية الدمشقية. كما وردت في مذكراته المنشورة في دمشق عام ١٩٩٠.

الحاج بدر الدين الشلاح في شبابه باللباس الرسمي لمحفل إبراهيم الخليل في دمشق.

محفل إبراهيم الخليل التابع لمحفل نيويورك الأكبر وأعضاؤه بدمشق عام ١٩٥٢.

الحاج بدر الدين الشلاح ووفد من غرفة تجارة دمشق
في زيارة للرئيس أديب الشيشكلي عام ١٩٥٣.

أحد أعضاء محفل إبراهيم الخليل الأميركي في دمشق في العشرينيات.
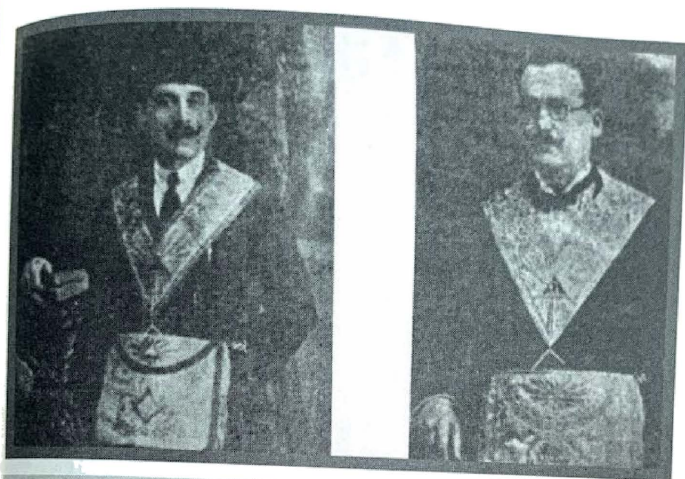
داوود المارديني ومصطفى القباني من محفل إبراهيم الخليل بدمشق.

وممن عرف من الماسون الدمشقيين واشتهر بانتمائه إلى العشيرة الحرة أمير الحج الدمشقي عبد الرحمن باشا اليوسف، الذي لم يترك بصمته الماسونية في كتاب التاريخ والمذكرات، بل تركها منقوشة بالحجر في قصره العريق بحيّ سوق ساروجا خارج أسوار مدينة دمشق القديمة[١٦]. اعتُبر عبد الرحمن باشا أغنى رجل عربي في الدولة العثمانية، إذ كان مقرباً من سلاطين بني عثمان، وكان يملك كامل الشاطئ الشرقي من بحيرة طبريا، وثلاث قرى كاملة في غوطة دمشق الشرقية، وخمس قرى في سهل البقاع، وأربعاً وعشرين قرية في الجولان السوري. كانت هذه الأملاك تدرّ عليه مالاً لا يقل عن عشرة آلاف ليرة ذهبية سنوياً[١٧]. وكان قد ورث إمارة الحج الدمشقي في القرن التاسع عشر، وأصبح ماسونياً عام ١٩٠٩. وبعد

أمير الحج الدمشقي عبد الرحمن باشا اليوسف رئيساً لمجلس الشورى في عهد الملك فيصل الأول عام ١٩٢٠.

سقوط الدولة العثمانية أنشأ وترأس مجلس الشورى السوري في عهد الملك فيصل الأول ما بين ١٩١٩-١٩٢٠.

في قصره الفاخر بحيّ سوق ساروجا، الذي يمتد على مساحة ٢٥٠٠ متر مربع غرب المدينة إلى جانب قصر الرئيس خالد العظم، قام عبد الرحمن باشا بتزيين ليوان فسحة بيته السماوية بشعارات ماسونية. شكّلت هذه الرسوم الماسونية جزءاً لا يتجزأ من تراث قصره الجميل إلى جانب المفروشات المصدّفة الأنيقة المجلّلة بالبروكار والحرير الدمشقي. ويُعتقد أن هذه الرسومات حفرت عام ١٩٠٩، أي بعد فترة وجيزة من خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن الحكم، كإشارة منه إلى حكام إسطنبول الجدد في جمعية الاتحاد والترقي، المنتسبين أيضاً إلى العشيرة الماسونية. قُتل عبد الرحمن باشا اليوسف في حوران في صيف عام ١٩٢٠ والتحق نجله سعيد اليوسف بالماسونية، حيث أصبح محافظاً لدمشق أيام الاستقلال ما بين ١٩٤٩ و١٩٥١. واستكمالاً لدور والده الإنساني في مساعدة المدينة وفقرائها، تبرع «سعيد بك» بقطعة أرض للدولة السورية سنة ١٩٣٤ لبناء مستشفىً حديث على سفح جبل قاسيون بين حيّي ركن الدين وبرزة، سمي مستشفى ابن النفيس، وقام بوضع لوحة رخامية عند مدخل المشفى تكريماً لوالده عبد الرحمن باشا اليوسف. ولا تزال اللوحة الرخامية موجودة عند كتابة هذه السطور عام ٢٠١٦.

الهوامش

١ كيرك ماكنولتي، الماسونية: رموزها، أسرارها، وأهميتها، ٣٠٣.

٢ نفس المصدر.

٣ نفس المصدر.

٤ لقاء المؤلف مع الدكتور جورج لاذقاني، عضو محفل سورية ولبنان (دمشق، ٣ حزيران ١٩٩٥).

٥ جريدة العاصمة (٢١ تشرين الأول ١٩٢١).

٦ لقاء المؤلف مع كوليت خوري (دمشق، ٢٠ شباط ٢٠١٦).

٧ الأب لويس شيخو، السر المصون في شيعة الفرمسون.

٨ لقاء المؤلف مع الدكتور نقولا أنسطاس شاهين (دمشق، ٢٩ آذار ٢٠١٦).

٩ لقاء المؤلف مع الدكتور جورج لاذقاني، عضو محفل سورية ولبنان (دمشق، ٣ حزيران ١٩٩٥).

١٠ لقاء المؤلف مع الدكتور جورج لاذقاني، عضو محفل نور دمشق (دمشق، ٣ حزيران ١٩٩٥).

١١ لقاء المؤلف مع الدكتور جورج لاذقاني، عضو محفل نور دمشق (دمشق، ٣ حزيران ١٩٩٥).

١٢ نفس المصدر.

١٣ فيليب خوري، سورية والانتداب الفرنسي، ص ١٩٨.

١٤ عبد الحليم إلياس خوري، الماسونية ذلك العالم المجهول، ٥٤.

١٥ سجلات محاضر جلسات محفل إبراهيم الخليل، الموجودة في محفل نيويورك الأكبر.

١٦ لقاء المؤلف مع السيدة فاتن اليوسف حفيدة عبد الرحمن باشا اليوسف (دمشق، ١٤ تموز ٢٠١٦).

١٧ حنا بطاطو، فلاحو سورية، ٤٠.

المحافل الدمشقية

كانت الماسونية تاريخياً عبارة عن أخوية ذات أسرار، علمانية الهوى وباطنية المنشأ، متاحة للرجال فقط، بالرغم من دخول النساء إلى بعض المحافل في أوروبا والولايات المتحدة في نهايات القرن التاسع عشر. ولكن في سورية وكافة البلدان العربية كانت الماسونية دوماً حكراً على الرجال فقط، وبقيت كذلك من الولادة حتى المهات. ولكي يصبح أي راغب عضواً في الماسونية، ينبغي له أن يقدم طلباً شخصياً إلى محفل رسمي في المنطقة التي يسكن فيها، ويجري قبول «الطالب» أو رفضه في اقتراع سرّي بين أعضاء المحفل المعني. يكون التصويت بوضع بطاقة في صندوق، لا يراها إلا رئيس المحفل، بيضاء اللون في حال القبول وسوداء في حال الرفض. شروط القبول هي أن يكون «الطالب» قد بلغ الحادية والعشرين من العمر، سليماً من الناحية الصحية والقانونية، ذا سمعة حسنة، وأن يكون «رجلاً حر الإرادة» مؤمناً

بوجود خالق بغض النظر عن تسميته وديانته. فالماسونية ليست ديناً، ولكن أعضاءها يصفونها بأنها حامل للدين وداعم فلسفي له. لا يوجد رسل أو أنبياء في الماسونية أو أي كتابات مقدسة، وفي مراسيم الانتساب يخيّر «الطالب» بين حلف القسم وتقبيل إما القرآن أو الإنجيل أو التوراة، إذ لا مكان للملحدين بين صفوف الماسونية، وأول سؤال يُسأله طالب الانتساب عند التقدم بطلبه هو: «هل تؤمن بالخالق؟»، فمن كانت إجابته بالنفي عليه أن يعود من حيث أتى.

الماسونيون يعتمدون عبارة «مهندس الكون العظيم» رمزاً إلى الخالق ويضعون حرف (جي) في صدارة محافلهم، رمزاً لكلمة (GOD) باللغة الإنكليزية. ينبغي للمتقدم أن يحصل على تزكية خطيّة من قبل شخصين ماسونيين على الأقل، ولا يستطيع أحد أفراد العشيرة أن يدعو أحداً للدخول في الماسونية، كما يعتقد كثيرون، أو إجباره على الانتساب. بالإضافة إلى أن وفرة المال أو الثراء لدى أي منتسب ليسا من شروط القبول، لا ثروة ولا نفوذ أو سلطة، بل «سمعة حسنة». تدور مبادئ الماسونية حول الميتافيزيقيا وتفسير الكون والصعود في النفس والروح و«دفع المحبة والأخوية والعمل الخيري» بين كل الناس، كما ورد في أدبياتها الرسمية. ويقول الماسونيون إنهم يسعون في عملهم وعلمهم إلى بعث الحقيقة والعدل والعدالة، وإنهم لا يسعون إلى حكم العالم أو إلى تأسيس «حكومة عالمية في الظل» كما تقول عنهم الشائعات.

بسبب السرية البالغة عند الماسون وعدم فتح محافلهم للغرباء إلا في لندن (وذلك في إطار الزيارة السياحية فقط)، ظهرت الكثير من الاتهامات

والأقاويل عمّا يدور في داخل تلك المحافل، واتهم الماسون في سورية وحول العالم بعبادة الشيطان والسعي إلى الهيمنة على المجتمع، وقلب أنظمة الحكم. بينما يصر أعضاؤها على أنهم عشيرة متينة، تحفظ أسرارها بصمت أو «حرز حريز» وولاء مطلق، وأنها عبارة عن مجموعة من الرجال الذين يسعون دوماً إلى أن يصبحوا أفضل عبر فكرهم وعملهم.

إنّ من يجتاز مرحلة القبول يصبح «بناءً مبتدئاً» في العشيرة، يرتدي مريولاً أبيض يرمز إلى الصفاء وإلى أولى درجات العمل لدى الحرفيين والبنائين. تكون صلاحيات المبتدئ محدودة، فلا يحق له مثلاً التصويت لقبول عضو جديد، ولا يحق له تنظيم أعمال خيرية، ولكنه يستطيع حضور الاجتماعات دون أن يكون له حق التصويت على أيّ من القرارات. تُعصب عيناه عند دخول المحفل، مرتدياً اللون الأبيض، يسير العضو المبتدئ في الظلام واضعاً يده اليمنى على كتف رفيقه الماسوني يقوده دون أن يعرف هويته، ليتعلم ألا يسأل أين يمضي وأن يُسلّم لأخيه في الماسونية تسليماً مطلقاً. عصبة العين ترمز إلى حالة الجهل الذي يكون فيها المتقدم إلى العشيرة الحرة وإلى الظلام الذي كان يعيش فيه قبل دخوله الماسونية. وعند أدائه القسم تُرفع العصبة عن عينيه ويصبح مستعداً لاستقبال الضياء. في مراسم القبول يوضع حبل غليظ حول عنق المبتدئ، كرمز للحبل السري الذي يعتبر ضرورياً لبدء الحياة، ولكنه يُقطع أو يُستبدل بعد القسم بمفاهيم الحب والعناية التي تعتبر ضرورية لإدامة الحياة. يُكشَف عن صدره الأيسر حيث يُنغز بطرف سيف مسلول، تذكيراً بالعقاب المتّبع عند الماسون في حال إفشاء هذا العضو أي سرّ من أسرار العشيرة عند تعرفه إليها تباعاً، وهي دلالة على الموت طبعاً، ويُهدد بقطع عنقه وتكسير أضلاعه لو فعل.

في عام ١٩٢٥ قام «محفل قاسيون» الدمشقي بطرد الصحفي الشاب نجيب الريس، صاحب جريدة «القبس» اليومية، بسبب إفشائه لأسرار المحفل وهو لا يزال في رتبة «المبتدئ». لم يُضرب عنقه طبعاً ولا كسّرت أضلاعه، ولكن المحفل أصدر تعميماً إلى كافة محافل سورية ولبنان، يقول فيه إن نجيب الريس طُرد طرداً نهائياً من العشيرة، ولا يجب التعامل معه كأخ من الآن فصاعداً. لم يردّ نجيب الريس بكلمة واحدة طوال حياته المهنية، ومات سنة ١٩٥٢ دون أن يعرف أحد عن ماضيه الماسوني شيئاً. لكن رسالة طرده من الماسونية وردّه عليها نشرت بعد خمسة وستين عاماً من وفاته عندما قامت الصحفية السورية سعاد جروس بجمع أوراق الريّس في كتاب عن حياته[1]. وعلى الرغم من وصف «محفل قاسيون» لطرده بالنهائي، فقد سامحت الماسونية الدمشقية نجيب الريس ودعته إلى إحدى حفلاتها الخيرية عام ١٩٣٤ ووصفته في برنامجها المطبوع والموزع على الحضور بـ «الأخ نجيب الريس»[2].

RITE ECOSSAIS ANCIEN ACCEPTE

Grande Loge de France

R.·. L.·. Kaypsoun

No. **506** Or.·. Damas

CABINET DU VÉNÉRABLE

No

Damas, le 192 (E.·. V.·.)

المحفل الأكبر الفرنساوي

محفل قاسيون ... دمشق ... نمرة ٥٠٦

ديوان المحترم

رقم

دمشق في ١٩ حزيران سنة ١٩٢٥

حضرة الإخوان الأفاضل الأعزاء رئيس محفل الموقر وأعضائه الكرام

تحية أخوية مثلثة .:. وبعد فإنه بناءً على ثبوت إفشاء الأخ المبتدئ نجيب الريس للأسرار
وبناءً على الحالة غير الطبيعية وعلى تجرئه على مخالفة القانون وإهانته المحفل
الموقر بألفاظ غير لائقة لا يجوز صدورها بحال من الأحوال عن أخ ماسوني فقد قرر المحفل
في جلسته المنعقدة في ١٨ حزيران بالإجماع التام طرده طرداً أبدياً من العشيرة الحرة
فعلى سائر المحافل ضبط ... علماً بالأمر سائلين الله تعالى أن يوفقنا لإعلاء
شأن العشيرة المقدسة ونرجو قبول ... ودمتم لأخيكم الأوفى رعاكم

بأمر الرئيس المحترم

Correspondances : Housni Bey El Joundi Inspecteur Financiere à la Fédération Syrienne

رسالة فصل الصحفي نجيب الريس من محفل قاسيون التابع للمحفل الأكبر الفرنسي في ١٩ حزيران ١٩٢٥.

حضرات الاخوان رئيس واعضاء محكمة قاسيون العرفية

سلام واحترام. وبعد فمنذ شهرين تقريباً سلمت الشيخ صالح الحسيني رسالة موجهة الى محكمتكم الموقرة في تبليغي نسخة عن قرار قيل انه اتخذ بحقي اجمالاً قاضياً بعقوبة شديدة لا اعلم مقدارها ولا نوعها ولم يتم التبليغ لهذا القرار. ولما جئت اليوم مكرراً رجائي الى بعد بمحاكمتي حسب ما يقتضيه القانون والوجدان فيما اذا كنت مخطئاً او بدر مني ما يوجب مؤاخذتي مع استعدادي التام لتنفيذ جميع ما يترتب علي وما يوجبه القانون والتقاليد ملفتاً انظاركم الى انني ما طلبت سوى الانصاف وعدم اضاعة حقوقي وتفضلوا بقبول فائق احتراماتي واعتباراتي

١٦ حزيران ٩٢٧

نجيب الريس

برنامج الحفلة السنوية لمحفل قاسيون

التي ستقام مساء ١٢ مايس ١٩٣٤

١ – افتتاح المحفل رسمياً
٢ – قراءة اعمال الجلسة الماضية وتصديقها
٣ – ادخال الزوار
٤ – كيس المراسلات فيما يتعلق بالحفلة فقط
٥ – كلمة ترحيب للسدة الموقرة
٦ – كلمة لخطيب المحفل الاخ سليمان سعد
٧ – كلمة للاخ المحترم السابق رضا سعيد
٨ – كلمة للاخ المحترم الأسبق خليل الجبل .
٩ – كلمة لمندوبي المحافل (يراعى فيها الاختصار)
١٠ – كلمة للاخ نجيب الريس
١١ – كلمة شكر وختام
١٢ – كيس الاحسان
١٣ – قفل الاشغال

برنامج الحفل السنوي لمحفل قاسيون وعودة «الأخ نجيب الريس» إلى صفوفه عام ١٩٣٤.

روبرت موريس ولؤلؤة الشرق

وصلت الماسونية العالمية إلى مدينة دمشق في نيسان ١٨٦٨ عبر ماسوني أميركي يدعى روبرت موريس، جاء إلى سورية العثمانية لإنشاء أول محفل في عاصمة الأمويين. كان روبرت موريس شاعراً وكاتباً، ولد في بوسطن وأقام في مدينة نيويورك، وانتسب إلى محفل ولاية كنتاكي عندما كانت الماسونية في أوج تألقها وقوتها في أوروبا والولايات المتحدة. جاء موريس إلى دمشق حاملاً تحية أخوة من «نصف مليون ماسوني أميركي» ومعه مبلغ ألف دولار لتأسيس أول محفل فيها ولتعريب الماسونية عبر أبنائها، معتبراً أن جميع أسرار العالم القديم ورموزه موجودة في دمشق، التي وصفها روبرت موريس في كتاباته بـ«لؤلؤة الشرق» وأن في دورها وقصورها «غبار ألف جيل من البشرية»[٣].

استُقبل روبرت موريس بحفاوة من قبل الدمشقيين ووالي المدينة العثماني الشاب محمد رشيد باشا، البالغ من العمر الثالثة والثلاثين يومها، والذي كان أيضاً ماسونياً مثله. حيّاه موريس بالقبضة الماسونية ووصفه بالرجل «الجريء والحكيم والعالم، ومن يفتخر بارتدائه للوزرة الماسونية». جال روبرت موريس والوالي العثماني في شوارع دمشق وقام بزيارة لآثار مدينة تدمر في الصحراء السورية، ثم عرفه إلى خمسة عشر ماسونياً دمشقياً، معظمهم من أعضاء محفل فلسطين رقم ٤١٥ الموجود في بيروت[٤]. أسس هذا المحفل عام ١٨٦١، برعاية المحفل الأكبر الإسكتلندي، وبقي يعمل حتى سنة ١٨٨٩ [٥]. في ذلك الوقت لم يكن هناك أي محفل محلي في دمشق، وكان كل الماسون الدمشقيون منتسبين إلى محافل خارجية، يحضرون
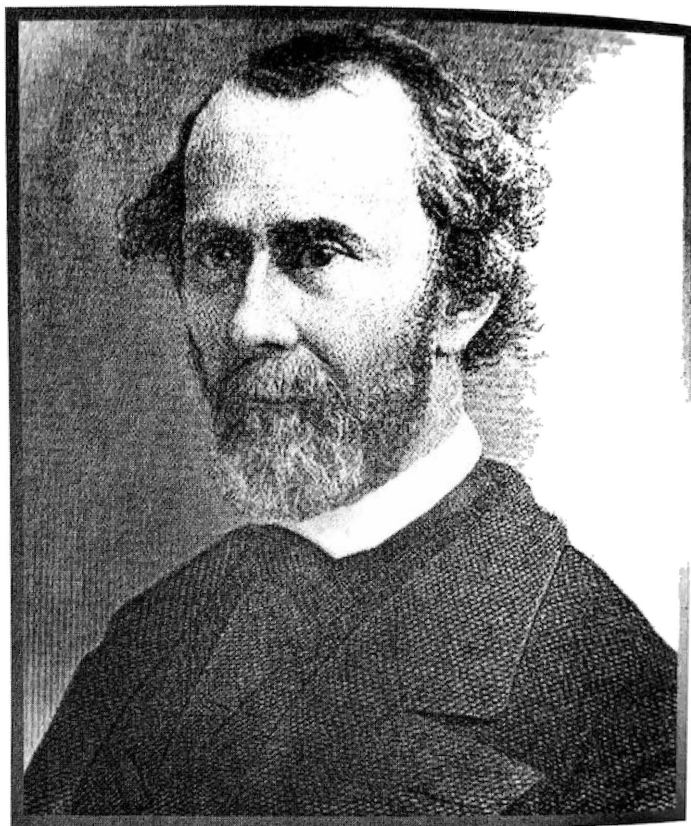
روبرت موريس الماسوني الأميركي من محفل كينتاكي الذي جاء إلى دمشق ليؤسس أول محفل محلي في نيسان ١٨٦٨.

الاجتماعات الدورية في المناسبات فقط، نظراً إلى مشقة السفر، فدعاهم موريس إلى اجتماع سرّي هو الأول من نوعه في تاريخ المدينة. جاء روبرت موريس بأدواته الماسونية ووضع قرآناً وإنجيلاً في وسط الغرفة أمام كرسي فخم مزين بالصدف الدمشقي، وعيّن نفسه رئيساً للجلسة، وبذلك رئيساً للمحفل الوليد. دخل الماسون السوريون الغرفة ببذلاتهم الغربية (الفراك) وطربوشهم الأحمر، ليصنعوا في ذلك اليوم تاريخ الماسونية في دمشق: ٧ نيسان ١٨٦٨ (٦).

عُقد اجتماع الماسون في فندق ديمتري المطل على نهر بردى في ساحة المرجة، والذي كان المكان المفضل يومها لدى نخبة دمشق حيث كانوا يسهرون ويشربون ويشاهدون العروض المسرحية والوصلات الغنائية. كان فندق ديمتري هو الأول من نوعه في دمشق شيده صاحبه اليوناني ديمتري كاراه سنة ١٨٥٠. ذلك المساء الربيعي من شهر نيسان، خلا فندق ديمتري، المؤلف من دارين متلاصقتين، من زبائنه المعتادين، وطاولات لعب الورق والنراجيل العجمية، وتهيّأ زواره لنوع آخر من السهر، مختلف عن كل ما عرفوه في الماضي.

كان الماسون الدمشقيون من خلفيات متنوعة علمياً وعائلياً، عملوا معاً على وضع رسالة موجهة إلى المحفل الأعظم الإنكليزي، طالبين صك براءة لتشغيل محفلهم المحلي الأول دون ذكر اسمه (٧). وقد وقّعوا على الطلب بصفتهم «ذوي أرضية متينة أخلاقياً واجتماعياً، لا مثيل لنا في هذا البلد في تجسيد مبادئ العشيرة». وكان من بين الحضور نائب القنصل الأميركي في دمشق ناصيف مشاقة، أحد أعيان المسيحيين، ومحمد علي محاسن، أحد

ساحة المرجة بدمشق حيث عقد أول اجتماع لمحفل ماسوني في المدينة في نيسان ١٨٦٨.

أعيان المسلمين الذي كان يعمل في المحكمة العثمانية العليا، ومعهما الأميران محمد ومحيي الدين الجزائري، ابنا الثائر الجزائري الأمير عبد القادر، المقيم في دمشق منذ عام ١٨٥٥. وقد قيل إن الأمير عبد القادر الجزائري، قائد ثورة بلاده ضد الفرنسيين، قد انضم إلى البنائين الأحرار في مصر في حزيران عام ١٨٦٤، وإنه شجّع ابنَيه على تأسيس فرعٍ لها في دمشق، وإنه استقبل روبرت موريس في داره بزقاق النقيب خلف الجامع الأموي بحيّ العمارة، بالقبضة الماسونية الشهيرة[٨]. ولما كان من المستحيل وجود أي دليل فعلي على انتساب الأمير عبد القادر إلى الماسونية، بالرغم كل ما أشيع وكتب عنه، ولكن من المؤكد أن ابنَيه كانا ماسونيين، وكذلك حفيده الأمير سعيد، الذي أصبح

حاكماً لمدينة دمشق عام ١٩١٨، وشقيقه الأمير جعفر الذي أسس المتحف السوري بعد سنوات[٩]. لكن في عام ١٨٦٨ بارك الأمير عبد القادر مبادرة ولديه، والتي ضمت أيضاً صديق العائلة الوجيه صالح العظم، وعباس خولي خان، قنصل بلاد فارس في دمشق.

كتب روبرت موريس شاكياً أنه لا يوجد إلا محفل سوري واحد في مدينة بيروت الساحلية، أما بقية المحافل فكان أقربها إلى دمشق محفل الإسكندرية، يرأسه الأمير حليم باشا، أصغر أبناء محمد علي باشا خديوي مصر، ومحفل قديم في الأناضول، كان والي الشام محمد رشيد باشا عضواً فيه[١٠]. فيما أشار موريس إلى أن في بلاده، الولايات المتحدة الأميركية وحدها، كان هناك ما لا يقل عن ثمانية آلاف محفل ماسوني معتمد، تشكّل ثلثي محافل العالم كله[١١]. أضاف بالقول إنه «بالرغم من رابطة الأخوة القوية الموجودة لدى الماسونيين السوريين، فإنهم غرباء عن بعضهم البعض، وكأنهم سياح يزورون دمشق، وذلك بسبب انعدام أي تنظيم بينهم»[١٢]. في ختام رسالته إلى محفل لندن كتب موريس: «لا يوجد مدينة في العالم تحتاج لتأسيس محفل من هذا النوع مثل مدينة دمشق»[١٣]. وقد أرسل طلب الترخيص بواسطة روبرت موريس إلى لندن عبر بيروت يوم ٢٢ نيسان ١٨٦٨.

استقبلت دمشق الماسونية بصدر رحبٍ وبأيادٍ مفتوحة، وتدفق أبناؤها للانتساب إلى هذه الجمعية الجديدة القادمة من الغرب. تعاملوا معها بشيء من الحذر، لكونهم بالرغم من شدة إعجابهم بتطور العلوم والاقتصاد والصناعة في الغرب، كانوا حذرين أيضاً من مطامع الدول الغربية في بلادهم. وعند زيارة مؤسس مجلة «المقتطف» المصرية شاهين مكاريوس

لدمشق عام ١٨٨١، أشار إلى أنه بالرغم من قصر عمرها، فإن الماسونية في سورية كانت «ناجحة للغاية»، وإن أعضاءها يمثلون كامل ألوان طيف المجتمع الدمشقي[١٤]. يضيف بالقول إنه دُعي إلى حضور جلسة في أحد المحافل الدمشقية، حيث تم قبوله عضو شرف وأُقيمت له «وليمة شائقة كثرت فيها الفاكهة الدمشقية الفاخرة ولم تدُر كؤوس الحان»[١٥].

مخاوف السلطان عبد الحميد الثاني

شارك السلطان العثماني عبد الحميد الثاني مخاوف السوريين من زيادة قوة الغرب في مفاصل الحياة اليومية للدولة العثمانية بعد نجاح الثورة الصناعية في أوروبا. كان عبد الحميد قد تولى العرش عام ١٨٧٦، أي بعد ثماني سنوات من بداية العمل الماسوني بدمشق. كان رجلاً شكاكاً بطبعه وإلى أبعد الحدود، لا ينام الليل خوفاً من الدسائس والمؤامرات ولا تفارق مخيلته قصص خلع أجداده عن العرش العثماني. وقد جرت محاولة اغتيال للسلطان عبد الحميد نفسه عام ١٩٠٥، ما زاد من مخاوفه وشكوكه من كل ما هو غريب ودخيل على المجتمع العثماني، وغاب من بعدها وراء أسوار قصره في إسطنبول، لا يظهر إلا في ما ندر خوفاً من محاولة اغتيال أخرى. بنى جامعاً فخماً مقابل قصره على ضفاف البوسفور، لتجنب الصلاة في وسط المدينة بين الناس، وصار يشرف بنفسه على إعداد وجبات الطعام في قصره، خوفاً من أي محاولة اغتيال بالسُّم.

السلطان عبد الحميد الثاني، الذي نشطت الماسونية في دمشق في عهده وخلع عن العرش بسببها عام ١٩٠٩.

في عصر السلطان عبد الحميد، تقلصت حدود الدولة العثمانية كثيراً، تلك الدولة التي كانت تضم ذات يوم مناطق واسعة من أوروبا الشرقية، ومدن البلقان، وجزيرة القرم، والقوقاز، والكثير من مدن شمال أفريقيا. فقد عبد الحميد سيطرته على كل من صربيا، ومونتينيغرو، والبوسنة، وقبرص، وتونس، ومصر، بعدما كانت إمبراطورية أجداده تغطي ثلاث قارات، يعيش فيها ما يربو على ٢٥ مليون مواطن يحمل الجنسية العثمانية. حاول عبد الحميد تعويض نفسه عن كل هذه الخسائر بفرض قبضة حديدية على البلدان العربية القابعة تحت حكمه، ومنها طبعاً ولاية الشام.

لم يكن عبد الحميد ديكتاتوراً من يومه الأول في الحكم. على العكس، كان في بدايات حكمه سلطاناً منفتحاً على الآخر، إذ يُعَدّ من إصلاحيي عصره بين نادي الملوك والحكام. فبعد توليه الحكم، أمر بإعطاء المزيد من الصلاحيات للحكام المحليين المعينين من قبله، وأعاد العمل بالدستور العثماني وبمجلس النواب (المعروف يومها بمجلس المبعوثان). كانت هذه الإصلاحات بإيعاز من الصدر الأعظم مدحت باشا (الماسوني الشهير الذي عُين والياً على دمشق عام ١٨٧٨). همس مدحت باشا في أذن السلطان بأنّ بإمكانه تجنب حرب مع روسيا القيصرية لو أظهر نفسه حليفاً لملوك أوروبا ومنفتحاً على عالمهم ونظام حكمهم. لم تنجح المحاولة طبعاً، ودخلت الدولة العثمانية حرباً مع الروس أدت إلى هزيمة نكراء للسلطان عبد الحميد عام ١٨٧٨، ما أغضب الأخير وجعله يضرب بكل إصلاحات مدحت باشا. وبين ليلة وضحاها، أعلن أن الديموقراطية الغربية مؤامرة على الإسلام وعلى عرشه، فقام بتعليق الدستور المكتوب بأيدي خيرة خبراء الدولة العثمانية، وعطّل البرلمان بفرمان سلطاني بعد عام واحد من تسلّم أعضائه مناصبهم.

ثم أطلق عبد الحميد أيادي أجهزته الأمنية، وسمح لهم بمراقبة الناس والصحف، وباعتقال من يرونه يمثّل تهديداً لسلامة الدولة وأمنها. وقد قيل يومها إن مخبري عبد الحميد موجودون في كل ركن من أركان دمشق وإسطنبول، يراقبون حياة الناس وتصرفاتهم وكلامهم في المجالس الخاصة والعامة، وإنهم حولوا الماسونية العثمانية إلى فرع تجسس كبير.

ثلاثة من أشقاء السلطان عبد الحميد كانوا من الماسون، وكذلك وزيره ومستشاره مدحت باشا، إضافة إلى عدد لا بأس به من ضباطه الشباب، ولكن عبد الحميد نفسه لم يكن ماسونياً في يوم من الأيام ولم تعجبه أفكار الماسون وتأثرهم بالغرب وسريّة محافلهم وعملهم. على الرغم من ذلك، فقد سمح للعشيرة بأن تنشط في بلاده، آملاً أن يستطيع أعضاؤها خلق شبكة ولاء جديدة له ولعرشه، لأن الماسونية - كما قيل له - تشجع على احترام الدولة وعدم المساس بأمنها، وتطلب الولاء المطلق لحكامها، ملوكاً كانوا أو رؤساء. حاول السلطان عبد الحميد تجيير الماسونية لمصلحته، وتحويلها من فكر غربي دخيل على مجتمعه إلى تنظيم محلي تابع له، مستثمراً شبكة علاقات أعضائها المتنوعة والقوية مع رؤوس الأموال والسياسة ورجال الأعمال العالميين. وكان شرطه الوحيد أن تتبع بشكل تام إلى قوانين الدولة العثمانية وأحكامها. وهذا فعلاً ما حصل، فقد قبل الماسون بشروط السلطان وأقسموا الولاء المطلق له، وبدأت تظهر سلسلة من المحافل الماسونية العثمانية التابعة لمحافل فرنسية وإيطالية بين ١٩٠٨ و١٩١٠، مزينة بعلم الدولة الأحمر وهلاله الأبيض وصور السلطان المعظم، راعياً وأباً ووالياً عليهم. من طريق هذه النخبة أراد السلطان عبد الحميد إعادة اختراع نفسه ودولته، وربطها ربطاً مباشراً به مع إدخال بعض معالم الحداثة

الكهرباء وخط التلغراف. وقد كان لدمشق حصة الأسد من هذه
ماية، واستفاد المثقفون من أهلها بإطلاق يدهم في العمل الماسوني حتى
ة الحرب العالمية الأولى في صيف عام ١٩١٤.

ق الأموي الكبير

على تعاليم البنائين الأحرار وأعرافهم، فإن جميع المحافل في العالم يجب أن
شرق المدينة الحاضنة لها، لأن الشمس تشرق من الشرق لتضيء النهار،
ئيس المحفل يجلس في الشرق لتشغيل المحفل وإدارة رعيته. فالمحافل
ي مركز اجتماع الماسونيين ومقرهم الدائم، وفيها تعقد الاجتماعات وتدار
ور العشيرة. منها يُقبَل الأعضاء في المراتب الأولى والثانية والثالثة، وفي
ذه المحافل تجري عمليات التنصيب والترفيع، ومعرفة الأسرار وشعارات
تعارف بينهم.

ندما بدأت المحافل بمزاولة أعمالها في دمشق نهاية القرن التاسع عشر،
انت المدينة صغيرة جداً بالمقارنة مع دمشق المعروفة اليوم، فقد كانت
محصورة ضمن أسوارها القديمة. وكان عصب المدينة ومركزها الرئيسي
جامعها الأموي الكبير، حيث توجد مئذنة عيسى، التي سينزل عليها السيد
المسيح يوم القيامة لمحاربة المسيح الدجال، كما يعتقد ويقول علماء الدين
الإسلامي. فعند المسلمين، يقول الحديث الشريف إنه سيظهر على منارة
بيضاء شرق دمشق (أي مئذنة عيسى شرق الجامع الأموي). وقد تأسست
جميع المحافل الماسونية على مسافة قريبة من الجامع الكبير لكي تكون فعلاً
شرق المدينة. قدر عدد المحافل في سورية ولبنان بثلاثين سنة ١٩٢٣، يصل

عدد أعضائها إلى ١٥ ألف ماسوني، ٧ آلاف منهم في دمشق وحدها[١٦].
المحفل الأول كان «محفل سورية» وقد تأسس عام ١٨٧٩، وكان يتبع للمحفل الأكبر الإيطالي[١٧]. عاش هذا المحفل لمدة ١١ عاماً فقط ولم تنجُ أي من أوراقه الرسمية[١٨]. تلاه محفل «نور دمشق» صاحب الترخيص رقم ١٠٥٨ التابع للمحفل الأكبر الإسكتلندي، وتأسس في عام ١٨٩٨ في حيّ مئذنة الشحم، في عقر دار تجار المدينة ووجهائها الأثرياء.

محفل نور دمشق

أُنشئ محفل «نور دمشق» داخل قصر بديع الجمال، مؤلف من ثلاث عشرة غرفة فاخرة، تزيّنت كل غرفة منها بزخارف من مختلف الألوان كالذهبي والزهري والاخضر. أما أسقفها العجمية، فكان يصل ارتفاع الواحد منها حتى سبعة أمتار علواً عن الأرض، واحتوى القصر على ثلاث فسح سماوية في أرض الديار، فيها بحرات تمتلئ بالماء العذب، وأشجار ليمون عالية ونارنج، وزهرات الأضالية والياسمين الدمشقي. عُرف حيّ مئذنة الشحم بهذا البهاء وهذه الأناقة، وأيضاً بكونه مسقط رأس شاعر الشام نزار قباني الذي ولد فيه عام ١٩٢٣، والذي لطالما تغنى بمئذنة الشحم شعراً بعد سنوات طويلة من إغلاق محفل «نور دمشق» ونزع صفة الماسونية عن هذا الحيّ الدمشقي العريق. لا نعرف الكثير عن هذا المحفل إلا أسماء أعضائه المؤسسين، الذين بلغ عددهم ١١٠، ومكان انعقاد اجتماعاتهم، فجميع أوراق «محفل نور دمشق» قد ذهبت أدراج الرياح ومعها سجل جلساته الشهرية وعمله الخيري، باستثناء ملف واحد فقط عائد إلى عام ١٩١٢، موجود حتى اليوم في سجلات المحفل الاسكتلندي الأكبر في

مدينة إدنبرا الإسكتلندية. لا يوجد أوراق تسجيل لهذا المحفل، لا في الأرشيف العثماني في إسطنبول، ولا في سجلات مدينة دمشق، ولكن كُتب لاثنين من مؤسسيه أن يصبحا من أبرز الأسماء في الحركة الوطنية في سورية، رفاق دراسة ودرب وسلاح وأخوة في الماسونية مدى الحياة، هما عبد الرحمن الشهبندر وفارس الخوري. كان كل من الرجلين قد درس في جامعة بيروت الأميركية وأصبح علماً في عمله، إذ أصبح الشهبندر طبيباً والخوري محامياً، وذلك قبل دخولهما ميدان العمل السياسي مع بدايات القرن العشرين. وكان من بين الأعضاء المؤسسين لمحفل «نور دمشق» أيضاً، السياسي الكبير عطا الأيوبي والوجيه المسيحي سليم مشاقة مترجم القنصلية البريطانية في دمشق، وعبدو قدسي، القنصل الفخري لليونان والدنمارك في دمشق، وعبد الله مالك (والد الأمين العام لمجلس الوزراء المشار إليه سابقاً القاضي حنا مالك)، ومحمد الكزبري من كبرى عائلات دمشق والوجيه محمود البارودي، والد الزعيم فخري البارودي[١٩].

ونتيجة لانعدام الأمان وتدهور الحالة الاقتصادية والمعيشية لدى الناس، أغلق هذا المحفل أبوابه مع اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى في صيف عام ١٩١٤، ولم يُعَدْ فتحه عند انتهاء الحرب بعد أربع سنوات ونيف[٢٠]. لا يوجد دليل على أي منفعة، مالية كانت أو سياسية، حصل عليها الجيل الأول من البنائين الأحرار الدمشقيين، فجميعهم كانوا في الأساس من نخبة المجتمع السوري، لا يوجد شبكة علاقات بدمشق تعلو فوق شبكتهم الاجتماعية والعائلية والعشائرية، المركبة بدراية ودقة على مدى عقود من الزمن. عائلة الكزبري على سبيل المثال كانت مشهورة بعلم أبنائها في المجال الديني وفي مكانتهم المرموقة في مجتمع الأعمال والتجارة، وكذلك
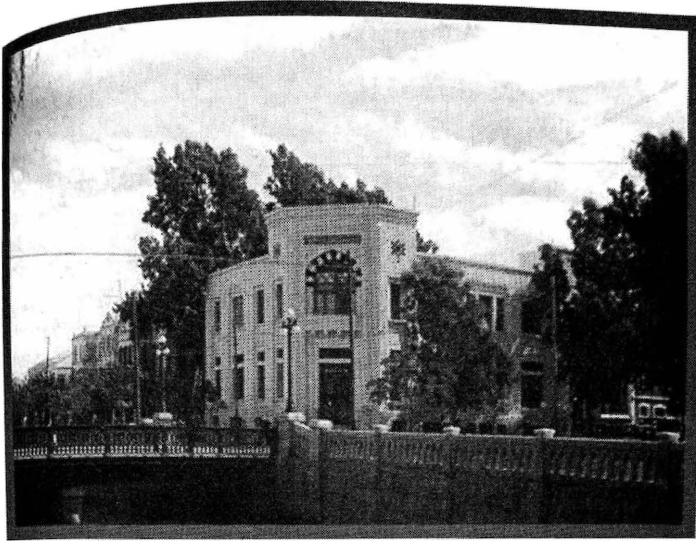
مصرف سورية ولبنان بالقرب من ساحة المرجة حيث عقد الاجتماع التأسيسي لمحفل قاسيون يوم ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٢.

الحال مع عائلة القدسي المسيحية التي اشتهرت بتجارة الحرير قبل دخول الماسونية إلى هذا البلد بسنوات طويلة. محمود البارودي كان حفيد حاكم مدينة عكا، والشهبندر كان أشهر طبيب في دمشق يداوي أرفع الضباط رتبةً في الجيش العثماني. الماسونية أخذت من مالهم وسمعتهم، وقطعاً استفادت منهم في مرحلة التأسيس، ولو أعطتهم بقدر ما أخذت منهم لما كان الكثير من أعضائها تخلوا عنها بهذه السهولة، سواء بعد الحرب العالمية الأولى أو بعد نكبة فلسطين. الفائدة الوحيدة هنا، ونحن نتكهن ولا نجزم، تكون في العلاقات مع الأجانب والعالم الخارجي، فالشهبندر وفارس الخوري مثلاً وجدا عملاً فور تخرجهما في الهيئة التدريسية لجامعة بيروت الأميركية،

الشرق الأعظم العربي السوري

محفل الحكمة

حضرة الأخ العزيز رضا باشا مردم بك

تحية أخوية .. وبعد أتشرف بأمر الرئيس المحترم

بدعوتكم لحضور جلسة المحفل القانونية التي تعقد في الساعة

السادسة من مساء يوم الأربعاء ... في الدار الماسونية

الكبرى بشارع خالد بن الوليد

دمشق في / /

برنامج الأعمال

١ – فتح الجلسة .
٢ – تلاوة محضر الجلسة السابقة والتصديق عليه .
٣ – تلاوة الرسائل والطلبات الواردة إلى المحفل .
٤ – تكريس
٥ – ترقية
٦ – محاضرة
٧ – كيس الإحسان
٨ – غلق الجلسة .

حفلة تنصيب رئيس وأعضاء محفل الحكمة لعام ٩٤٨

دعوة الوجيه رضا مردم بك لحضور حفل تنصيب رئيس وأعضاء محفل الحكمة بدمشق عام ١٩٤٨. المصدر: مكتبة السيد تميم مأمون مردم بك.

ليس فقط لأنهم ماسون، بل لأنهم يستحقون أرفع المناصب العلمية، ولكن الماسونية العالمية وانتمائهم إلى «محفل نور دمشق» من الممكن أن تكون قد فتحت أبواباً بنحو أسرع لكلا الرجلين.

محفل قاسيون

عند انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨، عاود الماسون الدمشقيون ممارسة أعمالهم بنشاط، فقاموا بافتتاح عدة محافل جديدة في دمشق وبيروت وزحلة وحمص وحماه وحلب واللاذقية وطرابلس. ففي الفترة ما بين عام ١٩٢٢-١٩٢٤ ظهر محفلان في دمشق وحدها، محفل قاسيون ومحفل سورية

(وهو غير المحفل الذي حمل نفس الاسم نهايات القرن التاسع عشر). ولقد تأسس «محفل قاسيون» في الطبقة الأولى من مصرف سورية ولبنان في ٤ كانون الثاني ١٩٢٢، وكان تابعاً للمحفل الأكبر الفرنسي، وعُرف من بين أعضائه رئيس الوزراء الأسبق جميل الإلشي، الذي حكم البلاد لفترة وجيزة مع احتلال الفرنسيين مدينة دمشق في صيف عام ١٩٢٠، والوجيه رضا مردم بك، والتاجر زكي سكر، وطبيب العيون الدكتور رضا سعيد الذي أصبح الأب المؤسس للجامعة السورية بعد أشهر قليلة، والذي غادر محفل قاسيون في عام ١٩٢٨ ليؤسس «محفل الإسعاف» في دمشق وأتبعه بالمحفل الأكبر المصري[٢١]. وعرف أيضاً من أعضاء «محفل قاسيون» من الأعلام الطبيب مصطفى شوقي مؤسس منظمة الهلال الأحمر السوري وصديقه الصيدلاني خليل الهبل. وكان الدكتور شوقي قد عمل مع الدكتور رضا سعيد في إعادة تأهيل وتعريب كلية الطب في الجامعة السورية، وعُيِّن عميداً لها في عام ١٩٣٨. وصل عدد أعضاء المحفل إلى ذروته عام ١٩٢٢، ولم يتجاوز التسعين شخصاً[٢٢].

مع مطلع العشرينيات تغيرت الحالة بالنسبة إلى الماسونية الدمشقية، وذلك بسبب دخول عدد كبير من الأجانب مع الجيش الفرنسي المُحتل. أصبحت الماسونية مربحة على الصعيد الاجتماعي والمهني، يستطيع الدمشقيون التعرف من خلالها إلى ضباط جيش الشرق الفرنسي، وكبار الموظفين في مكتب المستعمرات والخارجية الفرنسية والتجار الأجانب. لم يكن هذا متاحاً أيام العثمانيين، لأن ضباط الجيش التركي وموظفي السلطنة الرفيعين كانوا يمارسون نشاطهم الماسوني في إسطنبول وليس في دمشق. أما أيام الفرنسيين، فكان الجميع، دمشقيين وفرنسيين، يجتمعون في محافل العاصمة

لسورية أو على مآدبها الليلية لمناقشة أمور سياسية واقتصادية وتبادل
لآراء. استفاد المسؤولون الفرنسيون من محافل دمشق لأنها اختصرت
عليهم طريقاً شاقاً في معرفة المجتمع السوري النخبوي، وطوال فترة
حكمهم لهذا البلد كانت معظم اختيارات التوظيف للمناصب العليا من
داخل المحافل الماسونية. ولكن الانتماء الماسوني لم ينفع في كل الأوقات،
كما كان الحال مع الرئيس جميل الإلشي (١٨٨٣-١٩٥١)، الضابط السابق
في الجيش العثماني الذي عمل مع الإنكليز والهاشميين في الثورة العربية
الكبرى، وعُيِّن مساعداً للملك فيصل الأول عام ١٩١٨. في صيف عام
١٩٢٠ كلفه الملك فيصل إجراء مفاوضات مع المندوب السامي الفرنسي
الجنرال هنري غورو، في قصر سرسق العريق في بيروت، لعل نشاطه
الماسوني وعلاقته الطيبة مع الماسون الإنكليز والفرنسيين تنفع في تأجيل
فرض الانتداب الفرنسي على سورية، أو تعديل شروطه القاسية. نهره
الجنرال الفرنسي بشدة ورد بسخرية: «سورية لنا بالكامل، وقد اتفقنا على
كل شيء مع الإنكليز!». عاد الإلشي إلى دمشق خالي الوفاض، وتولى وزارة
الدفاع بعد استشهاد وزير الحربية يوسف العظمة ذلك الصيف، إثر معركة
ميسلون الشهيرة، ثم عُيِّن رئيساً للحكومة بعد مقتل سلفه الرئيس علاء
الدين دروبي في سهل حوران صيف عام ١٩٢٠. حاول الرئيس الإلشي
الاستفادة من علاقاته الماسونية مرة أخرى ورفض سلخ الأقضية الأربعة
عن سورية (حاصبيا وراشيا وبعلبك وسهل البقاع)، قائلاً إن إعطاء هذه
الأراضي الخصبة لدولة لبنان الكبير سوف يضر باقتصاد مدينة دمشق
ومواردها. هدد بالاستقالة لو أصر الفرنسيون على ذلك، وهكذا فعلوا
متجاهلين كلياً علاقات جميل الإلشي الماسونية.

الأخوة الماسون في محفل الإسعاف الدمشقي، رئيس جامعة دمشق الدكتور رضا سعيد ورئيس الوزراء عطا الأيوبي.

باسم مهندس الكون الأعظم

الأستاذ الأعظم

من الأستاذ الأعظم

لعشيرة البنائين الأحرار القدماء المقبولين في الديار المصرية

الى نوابنا فائقي الاحترام والرؤساء المحترمين والاخوان الاعزاء

السلام التام والتحية والاكرام

أمين السر الأعظم

نائب الرئيس الأعظم

كاتب سر أعظم

أمين خزينة أعظم

حامل ختم أعظم

وثيقة تأسيس محفل الإسعاف بدمشق موقعة من قبل رضا سعيد وعطا الأيوبي بتاريخ ١٠ شباط ١٩٢٨.

نظراً إلى كثرة الأطباء في «محفل قاسيون»، فقد تمحور معظم عمله الخيري حول القطاع الصحي وليس السياسي. إذ قام على سبيل المثال بتمويل وتشغيل مشفى لمرضى السل في حيّ الأكراد الدمشقي وقدمه هبة للحكومة السورية عام ١٩٣٦، عندما كان أحد الأخوة الماسون جميل مردم بك رئيساً للحكومة، وفارس الخوري رئيساً لمجلس النواب. كذلك موّل المحفل طباعة كتب ومجلات علمية طبعها جميعها في المطابع الأرثوذكسية في دمشق وقدمت مجاناً لكلية الطب في الجامعة السورية[٢٣]. ولعب «محفل قاسيون» دوراً مهماً في مرحلة تأسيس الجامعة السورية، ولا سيما إعادة تأهيل كلية الطب التي افتتحت أيام العثمانيين عام ١٩٠٣ وأغلقت بسبب الحرب العالمية الأولى ليعاد افتتاح الكليتين في العهد الفيصلي. وقد عيّنت حينها لجنة مؤلفة من ستة أطباء لإعادة كتابة المناهج بعد تعريبها من اللغة التركية، وكان ثلاثة من أعضائها منتسبين إلى الماسونية الدمشقية: عبد الرحمن الشهبندر (محفل نور دمشق)، ورضا سعيد (محفل قاسيون ثم محفل الإسعاف)، ومصطفى شوقي (محفل قاسيون ثم محفل إبراهيم الخليل).

لم يقتصر النشاط الماسوني على الأساتذة فقط، بل نشطت الماسونية بين الطلاب من الجيل الأول من متخرجي كلية الطب، المتأثرين بأساتذتهم طبعاً، مثل الدكتور حسني سبح من «محفل سورية» الذي أصبح رئيساً للجامعة السورية عام ١٩٤٣، ويكون ثاني ماسوني في دمشق يصل إلى هذا المنصب العلمي الرفيع، والطبيب أنسطاس شاهين (محفل قاسيون ثم محفل سورية ولبنان)، رئيس قسم الأنف والأذن والحنجرة الذي أصبح عميداً لكلية الطب سنة ١٩٤٩. كان الدكتور شاهين ماسونياً منتسباً إلى العشيرة الإسكتلندية، وأصبح في عهد الاستقلال رئيساً لنادي الروتاري في

دمشق[٢٤]. وعُرف من رؤساء الجامعة الماسون لاحقاً الدكتور مدني الخيمي، الذي درس الطب في الجامعة الأميركية وعين رئيساً للجامعة السورية في السبعينيات في عهد الرئيس حافظ الأسد، وكان من أشد المعجبين بالدكتور عبد الرحمن الشهبندر[٢٥].

دولة الرئيس سعيد الغزي مع رئيس الجمهورية شكري القوتلي والحسين بن طلال ملك الأردن عام ١٩٥٦.

محفل سورية

أما «محفل سورية» فقد أسسه الشرق الأعظم الفرنسي في مقر مؤقت بحيّ سوق ساروجا يوم ٢٠ تشرين الأول ١٩٢٤، وكان يضم عدداً كبيراً من الأجانب المقيمين في دمشق، حيث كانوا يأتون شهرياً من مركز إقامتهم في بيروت إلى دمشق لحضور اجتماعات المحفل الدورية في مقره الجديد بشارع خالد بن الوليد، وهو المحفل الوحيد الموجود خارج دائرة «شرق المدينة». من أعضائه السوريين والبارزين رئيس الوزراء في عهد الانتداب حقي العظم والقانوني الشهير ورئيس الحكومة في عهد الاستقلال سعيد بك الغزي، الذي شغل منصب وزير العدل مراراً في عهد الانتداب[٢٦].

حقي العظم (١٨٦٤-١٩٥٥)، كان من أعيان عصره، سليل أسرة عريقة حكمت دمشق مع العثمانيين طوال القرن الثامن عشر، بدأ عمله السياسي أيام الدولة العثمانية، وعين حاكماً لدولة دمشق، بما فيها مدينتا حمص وحماه، من قبل الجنرال الفرنسي هنري غورو عام ١٩٢٠. كان محسوباً على الفرنسيين ورشح نفسه لرئاسة الدولة السورية مرتين عام ١٩٢٣ و١٩٣٢، ولكن لا علاقاته مع سلطة الانتداب أو انتماؤه إلى «محفل سورية» نفع في وصوله إلى سدة الحكم بدمشق. في المرة الأولى كان خصمه صبحي بركات ماسونياً أيضاً، ليطرح سؤالاً مهماً عن تنسيق الماسون في ما بينهم ووزن الأعضاء المنتسبين إلى هذه العشيرة السرية عند أقرانهم في المحافل الدولية. حقي العظم كان عضواً في محفل محلي، ولكن صبحي بركات كان محسوباً على الماسونية العثمانية، الأنضج والأقوى من نظيرتها الدمشقية قبيل الحرب

العالمية الأولى. مع ذلك، عوّضته فرنسا عن خسارته وفرضته فرضاً على الرئيس محمد علي العابد رئيساً للحكومة ما بين ١٩٣٢ و ١٩٣٤. وفي المرة الثانية فاز عليه الرئيس محمد علي العابد المستقل. اعتزل «حقي بك» العمل السياسي بعد خروجه من الحكم وسافر إلى مصر وعاش فيها حتى المات، وفي مسيرته دليل واضح على ضعف الماسونية الدمشقية أمام نظيرتها في المنطقة والعالم[٢٧].

أما الرئيس سعيد الغزي (١٨٩٣-١٩٦٧)، فقد كان رجلاً مستقلاً غير منتم إلى أي حزب، درس القانون في جامعة دمشق وبدأ حياته مدرساً فيها ومحامياً في المحاكم السورية. دخل صفوف الكتلة الوطنية في شبابه وشارك في صياغة أول دستور جمهوري لسورية عام ١٩٢٨ قبل أن يصبح وزيراً للعدل في حكومة صديقه وأخيه في الماسونية عطا الأيوبي عام ١٩٣٦. أعيد إلى نفس المنصب سنة ١٩٤٥ في عهد الرئيس فارس الخوري وإلى وزارة للاقتصاد عام ١٩٤٧ في عهد الرئيس جميل مردم بك، وكلاهما كان أيضاً من الماسون. أصبح رئيساً للمؤتمر الدستوري الذي وضع دستور عام ١٩٥٠، وفي صيف عام ١٩٥٤ عين رئيساً للوزراء للإشراف على الانتخابات البرلمانية والرئاسية، التي يعتبرها المؤرخون السوريون والأجانب الأفضل والأكثر نزاهة في تاريخ البلاد. بقي في هذا المنصب حتى نهاية عام ١٩٥٤، وخلافاً لزملائه في العشيرة السرية، لم ينتقِ سعيد الغزي أي شخصية ماسونية للعمل معه في حكومته الأولى أو الثانية، التي استمرت من أيلول ١٩٥٥ حتى حزيران ١٩٥٦. على العكس، اعتمد الحياد المطلق، فأعطى الشاعر المرموق بدوي الجبل وزارة الدولة للدعاية والأنباء، وجابه العسكر بتعيينه للسياسي المدني رشاد برمدا وزيراً للدفاع. بالرغم من علاقاته الواسعة مع

الغرب، كان سعيد الغزي مهندس التقارب السوري-السوفياتي، فقد وقّع اتفاقية عسكرية مع تشيكوسلوفاكيا، وتبادل السفراء مع الصين الشعبية، ووقّع اتفاقيات تجارية مع بلغاريا وهنغاريا ورومانيا، وأرسل مجموعة من الطلبة السوريين لإكمال دراستهم العليا في ألمانيا الشرقية. مع ذلك سقط سقوطاً مشرفاً عندما اقتحمت مجموعة من طلاب جامعة دمشق مقرّ وزارة الاقتصاد احتجاجاً على رفع حظر بيع الطحين السوري إلى فرنسا خلال ثورة الجزائر، فقدم استقالته على الفور لإرضاء الطلبة وغاب عن المشهد ليعود إلى مكتبه الخاص وعمله الحقوقي حتى انهيار جمهورية الوحدة مع مصر عام ١٩٦١. رُشِّح لرئاسة مجلس النواب، ولكن العسكر وقفوا في وجهه وبقي نائباً في البرلمان، بعدما كان رئيساً للحكومة مرتين ومات في دمشق أيام البعث، وهو مهمش سياسياً، يوم ١٨ أيلول ١٩٦٧. مع أن الماسونية الدمشقية لم تُعطِ سعيد الغزي شيئاً يذكر، إلا أنه عمل داخل صفوفها بإخلاص لسنوات، وقدم مقراً مجاناً لمحفل سورية في شارع خالد بن الوليد بدلاً من المقر المؤقت في سوق ساروجا، واستخدمه لإدارة حملاته الانتخابية في الأربعينيات والخمسينيات.

من ضمن إنجازات «محفل سورية» تأسيس جمعية المواساة عام ١٩٤٤

... في بساتين المزة عام ١٩٥٨، وقد موّل المحفل

الهوامش

١ سعاد جروس، سورية من الانتداب إلى الانقلاب، ٧٢-٧٣.

٢ نفس المصدر.

٣ روبرت موريس، الماسونية في الأراضي المقدسة، ٥٥٩.

٤ روبرت موريس، الماسونية في الأراضي المقدسة، ٥٥٩.

٥ دوروثي سومرز، الماسونية في الإمبراطورية العثمانية، ٢٣٠.

٦ روبرت موريس، الماسونية في الأراضي المقدسة، ٥٥٩.

٧ نفس المصدر، ٥٥٧.

٨ نفس المصدر.

٩ لقاء المؤلف مع الأمير جعفر الجزائري (دمشق، ٥ حزيران ٢٠١٥).

١٠ دوروثي سومرز، الماسونية في الإمبراطورية العثمانية، ٧٩.

١١ نفس المصدر، ٥٥٥.

١٢ نفس المصدر.

١٣ نفس المصدر.

١٤ المقتطف (آذار ١٨٨٣).

١٥ شاهين مكاريوس، أربعة كتب عن الماسونية، ٣٩.

١٦ تيري ميليت، المريول والطربوش، ٥٠.

١٧ دوروثي سومرز، الماسونية في الإمبراطورية العثمانية، ٩٧.

١٨ جيمس كوالتي، سد الانقسام: التغير الاقتصادي والطبقي في بيروت ودمشق العهد العثماني، ٧٨ .

١٩ شاهين مكاريوس، أربعة كتب عن الماسونية، ٣٨.

٢٠ نجدت فتحي صفوت، الماسونية في العالم العربي، ٣٣.

٢١ وثيقة تأسيس محفل الإسعاف من مكتبة المرحوم الدكتور رضا سعيد، تقدمة السيد وفيق رضا سعيد (لندن ٢٠١٦).

٢٢ تيري ميليت، المريول والطربوش، ٨٤.

٢٣ مالك، مذكرات، ٢٩٦.

٢٤ لقاء المؤلف مع الدكتور نقولا أنسطاس شاهين (دمشق، ٢٩ آذار ٢٠١٦).

٢٥ لقاء المؤلف مع الدكتور سامي مدني الخيمي (بيروت، ٢ آذار ٢٠١٦).

٢٦ نفس المصدر ٢٩٠.

٢٧ تيري ميليت، المريول والطربوش ٤٤.

٢٨ حنا مالك، مذكرات، ٢٩٦.

الماسونية الدمشقية في الثلاثينيات

كان العقد الثالث من القرن العشرين حافلاً بالتغيرات في حياة السوريين، وكانت تلك المرحلة تُعَدُّ عصراً ذهبياً بالنسبة إلى الماسونية الدمشقية. فقد تغيّرت العاصمة السورية كثيراً بعد قضاء الفرنسيين على ثورة مسلحة قامت ضدهم عام ١٩٢٥، واستمرت حتى عام ١٩٢٧، حيث دمّر جيش الاحتلال الكثير من الأحياء القديمة والأسواق داخل أسوار دمشق، وأحرق الريف الدمشقي بأكمله. ونزح عدد كبير من أهالي الغوطة الشرقية إلى المدينة هرباً من الموت، مضاعفين عدد سكانها إلى ٢٠٠ ألف نسمة، ما زاد من أعباء توفير السكن والمياه والكهرباء والمدارس للوافدين الجدد. فقدت الأحياء الدمشقية القديمة الكثير من حميميتها ودفئها السابق، وأصبحت الزعامة أصعب على الأعيان، حيث باتت تفرض عليهم المزيد من الجهد والكثير من المال، لأن طبقة جديدة ظهرت في دمشق لم يكونوا

يعرفونها من قبل، ولم تكن تعرفهم، لكنها كانت بأمسّ الحاجة إليهم. وقد غابت الكثير من الوجوه التقليدية عن المشهد الدمشقي، إما هرباً من الحرب إلى بيروت أو القاهرة، أو إبعاداً من قبل سلطة الاحتلال، أو اعتقالاً في أقبية الفرنسيين. كانت دمشق بحاجة لزعماء جدد ولشبكة علاقات جديدة بغية حماية الأهالي ورعاية مصالحهم وتمثيلهم أمام الحكومة.

وجدت المدينة نفسها بين فكّي كماشة، فالأزمة الاقتصادية العالمية في منتصف الثلاثينيات، ما بين ١٩٣٠ و١٩٣٤، أوصلت عدد العاطلين من العمل إلى أكثر من ١٠٠ ألف شخص، أي ما يعادل ٥٠٪ من أهالي المدينة، وهو أعلى رقم مسجل منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى[1]. وبحسب أرقام غرفة تجارة دمشق، فإن عدد الصناعات اليدوية التقليدية كان قد انحدر من ٧٠٠ إلى ١٠٠ صناعة يدوية عاملة مع بداية عام ١٩٣٣، وترافق هذا الحال مع تدهور حاد في القيمة الشرائية لليرة السورية بسبب انهيار الفرنك الفرنسي المرتبط بالعملة السورية منذ عام ١٩٢٠. أما الدائنون، فالكثيرون منهم لم يستطيعوا الوفاء بالتزاماتهم المصرفية، معلنين إفلاسهم والحجز على أملاكهم، ما أدى أيضاً إلى إفلاس العديد من المصارف المحلية الصغيرة[2].

كانت دمشق بحالة موت اقتصادي سريع، مع تراجع صادرات القطن بنسبة ٨٦٪، والحرير بنسبة ٨١٪، والقمح بنسبة ١٦٪. وقد هبطت قيمة الصادرات السورية ما بين عامي ١٩٢٩-١٩٣٣ إلى النصف، وارتفع عدد المستوردات بنسبة ٣٨٪[3]. وقد أعلن أصحاب مطاحن الميدان إضراباً مفتوحاً، محتجين على زيادة التعرفة الجمركية على الطحين السوري، وقالوا إن سورية تستورد من القمح أربعة أضعاف إنتاجها، وهذا ما أجبر الكثير

من المطاحن على الإغلاق نهائياً ما بين عامي ١٩٣٢-١٩٣٣ [٤]. بالإضافة إلى ذلك، فقد ازداد معدل المستوردات الزراعية بنسبة ١٩٪، وتراجعت صادرات دمشق الزراعية بنسبة ٤٧٪. وقد أتى على سهل حوران جفاف حاد أدى إلى نزوح ٣٠ ألف مواطن إلى دمشق بسبب شحّ المياه في قراهم. حاولت دمشق تزويدهم بصهريجين من المياه أسبوعياً، لكن دون جدوى. ثم جاءت موجة من الصقيع القاسي ضربت جبال القلمون القريبة لتكتمل المصيبة وتؤدي إلى دمار ٦٠٪ من أشجار المشمش في الغوطة الشرقية.

بدأ الماسونيون الدمشقيون يجولون بين الأهالي لسماع مطالبهم الحياتية والاقتصادية والسياسية، محاولين طمأنة الناس والتخفيف عنهم في مصابهم. وكانت مطالب الناس هي ذاتها، تتكرر في كل حيّ وبيت ومتجر: عفو عام عن المعتقلين والمبعدين السياسيين، وحدة الأراضي السورية، وتعويض مالي عن الضرر الناجم عن حرق الغوطة من قبل الفرنسيين عام ١٩٢٥. وكان ما زاد من ألم الناس، ارتفاع القوات الفرنسية في سورية بشكل ملحوظ واستفزازي للأهالي، من تعداد يبلغ ١٢٨٨٩ عسكرياً عام ١٩٢٠ إلى ما يفوق ١٠٠ ألف عسكري مع بداية عام ١٩٣٢ [٥]. كان أهل سورية بأشد الحاجة لأمرين اثنين: الأمل والقيادة في المجتمع. وقد جاء الماسونيون ليعرضوا كلا الأمرين على الناس.

حاول الماسونيون في البداية تقريب عشيرتهم من المجتمع بإبعاد كافة المظاهر الأجنبية عنها. ففي عام ١٩٣٦، على سبيل المثال، صار النشيد الوطني السوري «حماة الديار» نشيداً رسمياً في كل المحافل الماسونية بدمشق، وباتت تلاوته من قبل أعضاء العشيرة لزاماً قبل افتتاح أي جلسة. كان هذا

الأمر تنفيذاً لطلب الرئيس فارس الخوري، الذي صدّق على «حماة الديار» خلال ترؤسه للبرلمان السوري في عهد الرئيس هاشم الأتاسي. بأمر من الرئيس الخوري، اعتمد الماسونيون نشيد «حماة الديار» بدلاً من النشيد الوطني الفرنسي، وقاموا أيضاً بوضع العلم السوري الجديد، المؤلف من ثلاثة ألوان، هي الأخضر والأبيض والأسود، تتوسطه ثلاث نجوم حمراء ترمز إلى ثلاث ثورات ضد المحتل: ثورة الساحل السوري بقيادة الشيخ صالح العلي، وثورة جبل العرب بقيادة سلطان باشا الأطرش، وثورة الشمال بقيادة الزعيم إبراهيم هنانو.

بالإضافة إلى ذلك، منع الرئيس الخوري الأجانب من دخول المحافل الدمشقية، فرنسيين كانوا أو إنكليز، ومنع أيضاً جنود الجيش الفرنسي من الانضمام إلى العشيرة السرية، وقد كانت غالبيتهم من مستعمرات فرنسا الأفريقية، إما سينغاليين أو مغاربة. وأخيراً أمر رئيس البرلمان السوري، والماسوني العتيق، أن تعقد كل الاجتماعات الماسونية باللغة العربية حصراً، ومنع استخدام أي لغة أجنبية في المحافل، بما فيها التركية القديمة الرائجة عند جيل كامل من السوريين. وبدءاً من عام ١٩٣٥، صارت جميع الشهادات الماسونية تكتب باللغة العربية وبخط عربي أنيق. كذلك أمر الخوري أن تعطل جميع المحافل في عيد الاستقلال عن الدولة العثمانية الواقع في الثامن من آذار من كل عام، بدلاً من عيد الثورة الفرنسية المفروض على سورية منذ عام ١٩٢٠ والواقع في الرابع عشر من تموز. بعد الاستقلال عام ١٩٤٦ صار يوم الجلاء الواقع فيه ١٧ نيسان هو العيد الرسمي لكل المحافل الماسونية في سورية. أخيراً، بدأت محافل دمشق تبتعد تدريجاً عن اللون الأزرق المعتمد في لباس المحافل الأوروبية، ولكي تُظهر هذا الاختلاف

الرمزي اعتمد ماسون دمشق الواناً مختلفة لوزارتهم، منها الأخضر والأحمر والأصفر أو الذهبي[٦].

من هنا، بدأ الماسون السوريون عملية «سورنة» المحافل المحلية وفكّ ارتباطها بالمحافل الدولية، ونشطوا بالترويج لأفكارهم في الصحف الماسونية وغير الماسونية أيضاً. اعترفوا بأنّ سورية تعاني من مشاكل مختلفة، وقالوا إنّ الماسونية يمكنها أن تكون الحل في حال قيامها بمراجعة لدورها السياسي والاجتماعي. في ٢٣ نيسان ١٩٣٥ عقد اجتماع مغلق لكافة المحافل الدمشقية لمناقشة مستقبل العشيرة السرية في سورية وتداعيات خمسة عشر عاماً من الاحتلال الفرنسي لبلادهم. وقد خرجوا من اجتماعهم بمقررات صادمة، مطالبين أولاً بإنهاء الانتداب الفرنسي دون قيد أو شرط، وتأسيس جيش وطني لسورية، ونادوا بضرورة انضمامهم إلى عصبة الأمم[٧]. وقد كتب الناشر وجيه بيضون، صاحب مطبعة ابن زيدون، وهو من أعيان المسلمين الشيعة في دمشق، مقالاً في شباط ١٩٣٧، معترفاً بأن الماسونية في البلاد العربية تعاني من تفشي الفساد، لأن عدداً كبيراً من محافلها كان يعمل بنحو غير قانوني، إذ تأسست تلك المحافل في زمن الحرب دون استيفاء الشروط اللازمة لدى الأعضاء. وقال بأن الكثيرين من الماسونيين، أو من يدّعون أنهم ماسونيون، عبارة عن مرتزقة ونصابين يستخدمون اسم العشيرة لجني المال والضحك على البسطاء. معقباً بأنه إذا أرادت الماسونية أن تستمر، فعليها أولاً أن تتخلص منهم جميعاً[٨]. وتضمن المقال فقرة يقول فيها إن بعض المحافل كان يطلب مبلغاً خرافياً من الأعضاء ثمناً للانتساب، والبعض الآخر كان يجري صفقات تجارية مشبوهة باسم الماسونية، والماسونيون كانوا أبرياء منهم، كما أضاف: إن شروط الانتساب خلال

سنوات الحرب كانت ضعيفة للغاية بسبب قلة الرجال في المجتمع السوري، وأن هناك الكثيرين من الأعضاء ممن لا يصلحون لحمل اللقب الماسوني. نشر بيضون العديد من المقالات مدافعاً عن فكرته، عبر مجلتين ماسونيتين كانتا تطبعان وتنشران من خلال مطابع ابن زيدون، هما مجلة «الإنسانية» ومجلة «كل جديد». وقد كانت كلتا المجلتين مرخصة لدى الحكومة السورية بصفة «مجلة دورية ثقافية أدبية». في عام ١٩٣٨ كتب الماسوني السوري علي نصر الدين مقالاً آخر هاجم فيه أخوته في العشيرة الذين يأتمرون بمحافل أجنبية في نيويورك ولندن، واصفاً جميع هؤلاء بالعبيد لأوروبا والولايات المتحدة. ثم جاء مقال في جريدة «التحرر» الحمصية في أيار ١٩٣٨، يقول كاتبه عبد القادر الجمالي إن الماسونية تعاني من تفشي نفوذ المال السياسي، والاحتلال الفرنسي، وقمع الحريات العامة، وإن الخلاص يبدأ بتوحيد جهود الماسون ضد هذه التحديات الثلاثة[٩].

حفل السوري الأكبر

شكل عام، كان الدمشقيون يفضلون الانتساب إلى محافل إسكتلندية عربية، بسبب إرثها المناهض للاستعمار الأوروبي في الشرق الأوسط، لم يكونوا يفضلون الاقتراب من محافل لندن وباريس، المعروفة بعلاقتها لوثيقة بأباطرة المال الصهاينة. وقد أدى هذا الأمر إلى تنافس واضح وحادّ ين المحافل التابعة لإسكتلندا مع نظرائها التابعة لنيويورك وباريس ولندن، والتي كانت مؤيدة بالطبع لحكومة الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان، والبريطاني في فلسطين. وكان البعض من السوريين ممن عرفوا بتأييدهم ودفاعهم عن حكم الفرنسيين لسورية قد أسسوا محفلاً جديداً لهم سموه «محفل الشرق السوري الأكبر»، وذلك في شارع الملك فؤاد بدمشق يوم ١٣ نيسان ١٩٣٥، وأتبعوه بالمحفل الأكبر الفرنسي[١٠]. فقام الوطنيون السوريون من الماسون بالردّ عليهم من خلال إنشاء محفل رديف، سموه «محفل سورية الأكبر»، وأتبعوه بالمحفل الأكبر الإسكتلندي، وكان هذا الأمر قد تمّ على يد الوطني النبيل عطا الأيوبي عام ١٩٣٩.

كان عطا الأيوبي من خيرة الدمشقيين علماً ومكانة وخبرة، ولد في دمشق عام ١٨٧٧ ودرس الإدارة العامة في جامعات إسطنبول حيث انتسب إلى الماسونية عبر محفل «نور دمشق» يوم ١٤ نيسان ١٩١٠. دخل سلك الوظيفة الحكومية وأصبح محافظاً لمدينة اللاذقية ثم وزيراً في الحكومة السورية المؤقتة التي شكّلها صهره الماسوني الأمير سعيد الجزائري يوم خروج آخر جندي عثماني من دمشق في أيلول عام ١٩١٨. كان ذلك الأمر عملاً طوعياً لحماية دمشق من الفوضى، ولم يتقاضَ الجزائري أو الأيوبي يومها أي راتبٍ أو مبلغ

مالي من أجله، وكان بصحبتهم أربعة من أخوتهم في الماسونية: جميل الإلشي، شاكر الحنبلي، فارس الخوري والشيخ طاهر الجزائري. في تموز من عام ١٩٢٠ أصبح الأيوبي وزيراً للداخلية قبل أيام من احتلال الفرنسيين لمدينة دمشق. عمل «عطا بك» على محاربة الانتداب من اليوم الأول، فأرسل المال والسلاح إلى ثورة الساحل السوري وثورة الشمال. نجا من محاولة اغتيال في ذلك الصيف في قرية خربة غزالة في سهل حوران، التي قتل فيها زميله الماسوني عبد الرحمن باشا اليوسف ورئيس الوزراء علاء الدين دروبي على أيدي عملاء فرنسيين متنكرين بزي الثوار. عمل الأيوبي أيضاً وزيراً للعدلية في عهد الانتداب الفرنسي، وأصبح رئيساً للوزراء مرتين عام ١٩٣٦ وعام ١٩٤٣، إذ أشرف على انتخابات برلمانية ورئاسية أدت في المرة الأولى إلى انتخاب زعيم الحركة الوطنية هاشم الأتاسي رئيساً للبلاد، وفي المرة الثانية إلى انتخاب الوطني الكبير شكري القوتلي. في حكومته الأولى عين الرئيس الأيوبي زميله في الماسونية الأمير مصطفى الشهابي وزيراً للمعارف، وسعيد الغزي وزيراً للعدل، وفي الثانية، أعطى حقائب المال والإعاشة والتموين للشهابي نفسه وعيّن السياسي الحلبي المرموق نعيم إنطاكي وزيراً للخارجية.

كان عطا الأيوبي من مؤسسي محفل الإسعاف الدمشقي رقم ٢٨٠، الذي كان يتبع للمحفل الأكبر المصري، وبعد ست سنوات قدم أوراق محفله الجديد، محفل سورية الأكبر، للحكومة السورية أيام الرئيس محمد علي العابد الذي وافق على الفور وأعطاه الترخيص المطلوب لمباشرة العمل. في حفل الافتتاح، شرب عطا الأيوبي نخب الرئيس العابد تكريماً له، وبعدها وزّع المناصب الداخلية على موظفي المحفل الجديد المناهض للاحتلال الفرنسي. فعيّن المصرفي الكبير حسن الحكيم (ابن حيّ الميدان الذي خلف الأيوبي لاحقاً في رئاسة الحكومة السورية) نائباً له في المحفل السوري الأكبر، ومعه الدكتور رضا سعيد رئيس الجامعة السورية. كذلك عيّن الأيوبي الوجيه شاكر الدبس، رئيس الكنيسة الإنجيلية في دمشق، سكرتيراً للمحفل الجديد. درس الدبس، البالغ ٣٦ عاماً من العمر يومها، في الجامعة الأميركية في بيروت، وفي سنوات لاحقة أصبح مديراً لدائرة الأمم المتحدة في وزارة الخارجية السورية ومستشاراً للسفارة السورية في لندن في عهد الاستقلال. كان من ضمن أعضاء محفل الأيوبي أيضاً صديقه وصهره الأمير سعيد الجزائري والطبيب الجراح عبد القادر زهرا، أحد مؤسسي كلية الطب في دمشق والمنشق عن محفل إبراهيم الخليل التابع لنيويورك.

لم يدم «محفل سورية الأكبر» طويلاً، بسبب محاربة السلطات الفرنسية له، وأغلقه المندوب السامي الفرنسي هنري دانتز عام ١٩٤٠ مع بداية الحرب العالمية الثانية. خلال عمره القصير أعطى المحفل براءات لعدة محافل محلية مستقلة عن الفرنسيين، ستٌّ منها في دمشق وحدها: محفل الإيمان، ومحفل التوفيق، ومحفل النهضة، ومحفل الأندلس، ومحفل الاتحاد، ومحفل اليرموك. ضم أكبرهم ١٥٠ عضواً، بينما لم يتجاوز عدد الأعضاء في أصغر المحافل تلك ٢٥ عضواً، وقد أغلقت حكومة الانتداب جميع هذه المحافل في عام ١٩٤٠.

الهوامش

١ فيليب خوري، سورية والانتداب الفرنسي، ٣٩٧.

٢ مركز وثائق الخارجية الفرنسية، ٣٧١-١٦٩٧٤ (١ تموز ١٩٣٣).

٣ نفس المصدر.

٤ مركز وثائق الخارجية الفرنسية، ٣٧١-٢٠٩١، العدد ١٦٩٧٤ (٣١ آذار ١٩٣٣).

٥ ثومسون، مواطنو المستعمرات، ٤٩.

٦ دوروثي سومرز، الماسونية في الإمبراطورية العثمانية، ٩٦.

٧ لقاء المؤلف مع الدكتور جورج لاذقاني، عضو محفل نور دمشق (دمشق، ٣ حزيران ١٩٩٥).

٨ مجلة الإنسانية (شباط ١٩٣٧).

٩ التحرر، العدد التاسع (أيار ١٩٣٨).

١٠ جريدة الأيام (١٥ نيسان ١٩٣٥).

عهد الاستقلال

عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وحصول سورية على استقلالها من الفرنسيين، نهض الماسون الدمشقيون مرة أخرى ليؤسسوا محفلاً جديداً لهم حمل اسم «محفل سورية ولبنان»، وكان ذلك في عام ١٩٤٩، وتأسست مع هذا المحفل ثلاثة محافل صغيرة، هي: محفل أمية في العاصمة، ومحفلا خالد بن الوليد والعروبة في حيّ الحميدية بحمص وسط البلاد. كانت هذه التجربة هي الأنضج من سابقاتها، حيث ضمّت هذه المحافل عدداً أكبر من الأعيان من مناطق ومذاهب مختلفة. كان أربعة من أعضاء المحفل الجديد وزراء سابقين، هم شاكر الحنبلي والأمير عادل أرسلان، وتوفيق شامية ويوسف الحكيم، وهم خليط من الموحدين الدروز والمسيحيين، وكان معهم الثري الدمشقي المسلم محمد الميداني، والطبيب والضابط السابق في

الجيش العثماني جورج لاذقاني[1]. وكان من بين الأعضاء المؤسسين لمحفل سورية ولبنان أيضاً الصحفي الكبير وجيه الحفار، صاحب جريدة الإنشاء الدمشقية وابن عم رئيس الوزراء الأسبق الماسوني أيضاً لطفي الحفار. كان توفيق شامية ويوسف الحكيم من وجهاء الطائفة الأرثوذوكسية، وقد تناوبا على حقائب النقل والتجارة والزراعة والعدل. أما الأمير عادل أرسلان، فهو من لبنان، عيّنه الرئيس شكري القوتلي نائباً عن الجولان في البرلمان السوري، وعُيِّن وزيراً للخارجية في عهد الزعيم حسني الزعيم. وكان والده ماسونياً، وكذلك شقيقه الشاعر والكاتب الكبير الأمير شكيب أرسلان، أحد مفكري القومية العربية في عصره. ضم «محفل سورية ولبنان» مدير إدارة البرق والبريد في سورية إبراهيم كنعان، ومؤسس معهد الموسيقى الشرقية القاضي أحمد عزت الأستاذ، الذي أصبح رئيساً لمحفل أمية الأكبر.

في عام ١٩٤٩ أقام «محفل سورية ولبنان» حفلاً تكريمياً كبيراً على شرف فوزي القاوقجي، قائد جيش الإنقاذ في فلسطين والذي حارب العصابات الصهيونية مرتين خلال الثورة الفلسطينية الأولى عام ١٩٣٦ وخلال حرب فلسطين الكبرى ما بين ١٩٤٧-١٩٤٨. في سنواتٍ لاحقة عند توجيه الاتهامات إلى الماسون السوريين بالارتباط بالصهيونية، كان البعض يشير إلى هذا المحفل ويتساءلون: كيف لتنظيمهم أن يكون كذلك، وقد كرّم شيخ المقاومين العرب في فلسطين؟

غاب ماسونيو دمشق عن المشهد السياسي لمدينتهم ما بين عامي ١٩٤٨-١٩٥٨ بسبب الشائعات والاتهامات المتزايدة عن تورط تنظيمهم في احتلال فلسطين وقيام دولة إسرائيل. ولم يرغبوا في دخول سجال عقيم أو في إثبات وطنيتهم وإخلاصهم لأحد. وحدث أن قام وفدٌ ماسوني مصري بزيارة دمشق في حزيران من عام ١٩٥٧، برئاسة رئيس محفل مصر الكبير طه مخلوف، ولم تغطِّ أي جريدة محلية خبر الزيارة، ولم تُنشر أي صورة لجولاتهم على محافل حلب وحمص واللاذقية. أصبحت المواضيع الماسونية غير مرغوب فيها عند القارئ السوري، وباتت تثير الكثير من الأسئلة التي كانت الصحف بغنى عنها خوفاً على سمعتها لدى المعلنين. في نفس العام قامت محافل دمشق ببناء مشفى صغير في سوق الدرويشية وتمويل علاج ٤٥ مصاباً بالملاريا، ومعالجة ٣٣٢ فقيراً يعانون من أمراض جلدية وباطنية وعصبية وصدرية. وقد نُشرت أخبار تلك العمليات في دوريات المحافل الداخلية، ولكن لم ترسل إلى الصحف تجنباً لرفض نشرها من قبل إدارات الجرائد اليومية، ولم تحصل أي منها على ثناء أو تقدير من مديرية الصحة في دمشق.

في عام ١٩٥٨ نشر الصحفي جورج فارس كتابه الموسوعي «من هم في العالم العربي»، وطلب من كافة أعيان سورية تزويده بصورهم وبسيرتهم الذاتية. جميعهم فعل، ولكن بخلاف ما كان يحصل في السنوات الماضية، لم يجرؤ أحد على ذكر نشاطه الماسوني إلا اثنين فقط من بين كل السوريين، الأمير سعيد الجزائري وشاكر الدبس، وكلاهما عضو في محفل سورية ولبنان. أما حسن الحكيم وفارس الخوري وجميل مردم بك ولطفي الحفار ووجيه الحفار وحسني سبح، ففضلوا إسقاط هذا القسم من ماضيهم في سيرهم الذاتية

في كتاب «من هم». وفي عام ١٩٥٧ أقام المحفل الإقليمي في لبنان دعوة لرئيس الوزراء سامي الصلح، المنتمي إلى «محفل سورية ولبنان»، لحضور المؤتمر الثامن للماسونية في لبنان، الذي يضم الشروق والمحافل الكبرى اللبنانية. عرض على الرئيس الصلح أن يكون رئيساً فخرياً للجلسة، ولكنه اعتذر عن عدم الحضور ولم يرسل من ينوب عنه[٢].

بدأت أنوار المحافل الماسونية تنطفئ تدريجاً، وبدأت تغيب معها الأنشطة العلنية والحملات الانتخابية لأعضائها المرشحين للمجالس المحلية والنيابية. حتى جريدة «الإنشاء» المملوكة من ماسونيين اثنين هما لطفي ووجيه الحفار، توقفت عن نشر أخبار المحافل الدمشقية، خوفاً من غضب الشارع السوري أو خشية من إثارة شكوك أجهزة الأمن التابعة يومئذٍ لعبد الحميد السراج. كان هذا بالرغم من أن رئيس البلاد في بداية الخمسينيات الزعيم فوزي سلو، ومعه العقيد أديب الشيشكلي، كانا عضوين في الماسونية الدمشقية.

الهوامش

١ مجلة كل جديد (العدد الثامن، آب ١٩٤٨).

٢ حمادة، الماسونية والماسونيون في العالم العربي، ٣٢.

الماسونية والانقلابات

بدأ عهد الانقلابات في سورية في آذار ١٩٤٩ عندما أطاح رئيس أركان الجيش حسني الزعيم برئيس الجمهورية شكري القوتلي ووضعه في سجن المزة العسكري مع رئيس الحكومة خالد العظم. لا يوجد أي علاقة للماسونية الدمشقية أو العالمية بهذا الانقلاب، ولا موقف لهم منه أو من صانعه، علماً أن حسني الزعيم قدم عدة خدمات لإسرائيل وأميركا خلال فترة حكمه القصيرة لسورية، فوقّع مثلاً هدنة مع الدولة العبرية، وعرض إتفاقية سلام على ديفيد بن غوريون، واقترح توطين اللاجئين الفلسطينيين في شمال شرق سورية مقابل دعم مالي وعسكري من الولايات المتحدة. إضافة إلى ذلك، وافق الزعيم على حظر الحزب الشيوعي السوري لإرضاء الأميركين في بدايات الحرب الباردة، وعلى

مرور خطوط النفط الأميركية (التابلاين) من صحراء السعودية، إلى لبنان عبر الأراضي السورية.

في صيف عام ١٩٤٩ وبعد انتخابه رئيساً للجمهورية، أمر حسني الزعيم بتسليم أنطون سعادة، مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، للسلطات اللبنانية حيث حوكم صورياً أمام القضاء وأعدم رمياً بالرصاص بأمر من رئيس الوزراء رياض الصلح بتهمة الخيانة والتآمر على الدولة. كان سعادة يُعدّ لثورة عسكرية في لبنان بدعم سوري وحماية من حسني الزعيم الذي أبرم صفقة تقضي بتسليمه للسلطات اللبنانية مقابل اعتراف لبناني رسمي بصانع الانقلاب السوري. الغريب هنا هو أن كلا الخصمين، أنطون سعادة ورياض الصلح، كانا من الماسون، يمثلان توجهاً مختلفاً ومتناقضاً تماماً في السياسية اللبنانية. الصلح كان من صانعي الجمهورية اللبنانية الحديثة ومدافعاً عن عروبتها واستقلالها، وأحد واضعي ميثاقها الوطني القاضي بتوزيع المناصب الرئاسية توزيعاً طائفياً ومتساوياً، ولكن سعادة كان علمانياً معارضاً لهذا الكيان الوليد الناتج من حدود سايكس بيكو، داعياً لعودة لبنان الكبير إلى الوطن السوري الأم ضمن مشروع وحدوي وجغرافي متكامل، عرف يومها بسورية الكبرى. كيف لماسوني لبناني رفيع أن يأمر بإعدام ماسوني لبناني آخر، من نفس الرتبة الماسونية؟ وكيف للماسونية العالمية أن تسمح بتصفية رجل من هذا الحجم، علماً أن أنطون سعادة ووالده من قبله كانا من أبرز الماسونيين العرب في الأرجنتين، حيث عاشا لسنوات طويلة؟ وكيف للماسونية أن لا تحمي أنطون سعادة من الموت عندما كان ضيفاً في دمشق، علماً أنها كانت موجودة بقوة في قصر حسني الزعيم؟ المصيبة كبيرة إن لم تكن قادرة على الوصول إليه لإنقاذه من

الخيانة والإعدام، وتكون أكبر بكثير لو لم تكن تعلم ما يُعَدّ لأنطون سعادة على يد حسني الزعيم. السؤال الاخير، ولا نملك إجابة عنه طبعاً، أنه إذا كان رياض الصلح قد أعدم أنطون سعادة بأمر من الماسونية نفسها، فلماذا سمحت الماسونية لهذا الرجل «المخلص» بأن يسقط قتيلاً هو الآخر بعد سنتين فقط عندما قُتل في العاصمة الأردنية عمان على يد شاب من حزب سعادة يوم ١٦ تموز ١٩٥١؟

لا يمكن التكهن طبعاً لأنه لا يوجد أي وثيقة أو نص في هذا الموضوع، الذي انعكس سلباً على حسني الزعيم وأدى إلى مقتله أيضاً في شهر آب عام ١٩٤٩ على يد اللواء سامي الحناوي، أحد الضباط المؤسسين للجيش العربي السوري، المقرب من العراق والذي خدم مع الزعيم في حرب فلسطين عندما كان الأول رئيساً للأركان، والثاني قائداً لإحدى الجبهات. القاسم المشترك بين الانقلاب الأول والثاني والثالث والرابع في سورية هو ضابطان اثنان ارتبط اسماهما ببعض بشكل وثيق، وتبين أن كليهما كانا عضوين في الماسونية الدمشقية، هما فوزي سلو وأديب الشيشكلي.

الرئيس فوزي سلو (١٩٠٥-١٩٧٢)، بدأ حياته ضابطاً في جيش الشرق الفرنسي، وكان من الآباء المؤسسين للجيش السوري بداية عهد الاستقلال. عين مديراً للكلية الحربية في حمص، ثم شارك في حرب فلسطين، وبعدها بانقلاب حسني الزعيم سنة ١٩٤٩. خلال عهد الزعيم عُين فوزي سلو ملحقاً عسكرياً لمفاوضات الهدنة بين سورية وإسرائيل، ثم تحالف مع العقيد الشيشكلي، الصديق القديم في معارك فلسطين، وشاركا في انقلاب اللواء سامي الحناوي على حسني الزعيم في صيف ذلك العام المصيري من

حياة سورية. في نهاية العام نفسه قام الرجلان بانقلاب عسكري جديد على سامي الحناوي، الطامع بتوحيد سورية والعراق تحت العرش الهاشمي، ولكنهما أبقيا على حكام سورية المدنيين، الممثلين بالرئيس الجليل هاشم الأتاسي. من كانون الأول ١٩٤٩ وحتى تشرين الثاني ١٩٥١، فرض أديب الشيشكلي صديقه الزعيم سلو وزيراً للدفاع في كافة الحكومات الوطنية، لإجهاد أي مشروع وحدة سورية عراقية قد يُطرح داخل مجلس الوزراء، معلناً أن سورية لن تحكم من قبل ملوك بغداد الهاشميين. اعتبر الرجلان أن الحكم الهاشمي لا يجب أن يعود إلى سورية لأنه مرتبط ببريطانيا العظمى، وعملا على تقليم أظفار كل من دعم هذا المشروع من السوريين، تحديداً من حزب الشعب المحسوب على تجار مدينة حلب وزعمائها. في نهاية عام ١٩٥١، تعاون الرجلان مرة أخرى في انقلاب جديد، هو الرابع في تاريخ البلاد منذ الاستقلال، وقاما باعتقال رئيس الحكومة الدكتور معروف الدواليبي من حزب الشعب، وكافة وزرائه، ما أدى إلى استقالة الرئيس الأتاسي من الحكم. الانقلاب الرابع كان من صنع العقيد الشيشكلي وحده، الذي فرح لمغادرة هاشم الأتاسي وأمر بتسلّم فوزي سلو مهمات رئاسة الدولة وصلاحياتها بالكامل، إضافة إلى حقيبة الدفاع ورئاسة مجلس الوزراء، مكتفياً بمنصب نائب رئيس الأركان العامة.

حكم أديب الشيشكلي سورية عبر صديقه فوزي سلو من شتاء عام ١٩٥١ وحتى صيف سنة ١٩٥٣، عندما تنازل الأول للأخير وغاب عن المشهد السياسي السوري بشكل نهائي، وعمل لفترة مستشاراً للملك سعود بن عبد العزيز بعد إصدار حكم الإعدام بحقه بعد سقوط الشيشكلي عام ١٩٥٤. عاد بعدها إلى سورية وتوفي في مستشفى حرستا العسكري قرب

العاصمة دمشق في نيسان ١٩٧٢ عن عمر ناهز السابعة والستين. خلال فترة حكمه أُلغيت جميع الأحزاب السياسية واعتُقل عدد من السياسيين المرموقين المحسوبين على العراق، وحلّ الرئيس سلو البرلمان السوري وأصدر دستوراً مؤقتاً يعطي بموجبه صلاحيات واسعة للرئاسة على حساب السلطتين التنفيذية والتشريعية. وعلى الرغم من عداوتهما الشديدة للتيار الهاشمي، فتح الرجلان علاقة جيدة مع الأردن بعد مقتل الملك المؤسس عبد الله بن الحسين في القدس عام ١٩٥١، وقاما بزيارة عمان لتهنئة نجله الملك طلال عند توليه العرش، معتبرين أن العاهل الشاب لا يتحمل أوزار والده في هزيمة الجيوش العربية خلال حرب فلسطين.

بقي فوزي سلو الحلقة الأضعف في هذا الثنائي طوال حياته، وسقط من معظم كتب التاريخ عكس الرئيس أديب الشيشكلي (١٩١٠-١٩٦٤) الذي كانت حياته مليئة بالمغامرات السياسية، وكان علامة فارقة في تاريخ سورية المعاصر. ولد في مدينة حماه على ضفاف نهر العاصي ودرس في الكلية الحربية ثم انتسب أيام الشباب إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي. التحق الشيشكلي بجيش الشرق الفرنسي وانشق عنه في ربيع عام ١٩٤٥، عندما قصف الفرنسيون العاصمة السورية خلال المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. التحق بالجيش الوطني وكان من مؤسسيه، ثم شارك في معارك فلسطين أولاً متطوعاً في جيش الإنقاذ مع القائد فوزي القاوقجي ثم جندياً نظامياً في الجيش السوري. تراجع السوريون في المعركة بالرغم من بسالتهم، وضياع فلسطين شكل صدمة قوية عند الشيشكلي وجيله من الضباط السوريين، فوجهوا سهامهم إلى رئيس الجمهورية شكري القوتلي وفريقه، متهمين الطبقة المدنية الحاكمة بشراء سلاح قديم

وبعدم إعطاء الضباط حقهم في إدارة المعارك. شارك الشيشكلي بانقا
حسني الزعيم على القوتلي وبكل الانقلابات المتلاحقة حتى وصل إلى
الحكم عبر صديقه القديم فوزي سلو في صيف عام ١٩٥٣. وضع دس
جديداً للبلاد وأسس لحزب سياسي جديد يدعى «حركة التحرير العرب
تضافرت الجهود العسكرية والسياسية ضده واندلع عصيان عسكري
الشمال السوري والجنوب، بقيادة سلطان باشا الأطرش من جهة والرئ
الأسبق هاشم الأتاسي من جهة أخرى، فردّ الشيشكلي باعتقال أ
الرجلين وبضرب جبل الدروز، ولكن عند إدراكه أن البلاد سوف تس
في دوامة عنف قد لا تنتهي، استقال من منصبه بعد سبعة أشهر فقط
توليه الرئاسة الأولى، تجنباً لسفك المزيد من الدماء، وغادر إلى لبنان ثم إ
السعودية وأخيراً إلى أميركا اللاتينية، حيث سقط قتيلاً على يد أحد أبن
الطائفة الدرزية في أيلول عام ١٩٦٤. لم تستطع الماسونية الدمشقية أ
تحميه من الانقلاب والموت، ولا أن تحمي صديقه فوزي سلو من النسيا

إضافة إلى مسيرتهم العسكرية المشتركة في حرب فلسطين وفي الانقلابا
العسكرية المتتالية، كان الرئيسان سلو والشيشكلي منتسبين إلى «محفل
سورية الأكبر» برئاسة الأمير سعيد الجزائري، زوج شقيقة الرئيس سلو
المؤرخون الأجانب للماسونية يقولون بحسم إن العشيرة السرية تحر
العمل أو التحدث بالسياسة والدين داخل المحافل وتمنع أعضاءها من
الوقوف في وجه الدولة أو في التآمر على سلامتها واستقرارها، وهذا الكلا
يتناقض كلياً مع حقبة الانقلابات في سورية. لا نملك جواباً إن كان لابتعاد
الشيشكلي عن الماسونية الدمشقية خلال فترة حكمه دور في سقوطه المدوي
بهذ الشكل، والأغلب أن لا رابط بينهما، ولكن المعروف أنه في عام ١٩٥١

طبع «محفل سورية الأكبر» كراساً عن نشاطه السنوي وأعضائه، واصفاً الشيشكلي فيه بأنه «حامي الماسونية السورية». ولكن الشيشكلي نفسه لم يفعل أي شيء للدفاع عن أبناء العشيرة عند اتهامها بالعمالة والخيانة، خوفاً على سمعته السياسية ورصيده الواسع في الشارع السوري والعربي، وتراجعت الماسونية في عهده تراجعاً رهيباً، وتوجه أعضاؤها إلى نوادي الروتاري، التي كانت أكثر قبولاً لدى المجتمع السوري بعد سنة ١٩٤٩.

روتاري دمشق

لم تكن نوادي الروتاري جديدة على دمشق، فقد بدأت بالعمل منذ الثلاثينيات عندما أدخلها كلار مارتين، مدير شركة شل للنفط إلى المجتمع السوري. تأسست نوادي الروتاري العالمية في الولايات المتحدة مع بدايات القرن العشرين كجمعية علمانية وشبكة علاقات «لمن يرغب في نشر الإنسانية حول العالم». كانت أهدافها على الورق تشبه إلى حد بعيد أهداف الماسونية وأفكارها في الإخاء والعدالة والعمل الخيري. وبدلاً من المحافل، كان أعضاء نوادي الروتاري يجتمعون على مآدب إفطار وعشاء في الفنادق الفخمة وفي البيوت الخاصة، حيث يناقشون أعمالهم ويقومون بدعم التواصل والتشبيك بين ذوي النفوذ في المجتمعات. في نيسان من عام ١٩٣٨ قام كلار مارتين بدعوة رئيس نادي روتاري الدولي موريس دي بوري إلى

دمشق للتعرف إلى أعيانها، وكان معظمهم من الماسون بطبيعة الحال، فارس
الخوري وجميل مردم بك ولطفي الحفار ورضا سعيد وعبد الرحمن الشهبندر
وعطا الأيوبي. قُدم لجميل مردم بك، رئيس الوزراء في حينها، طلب لتأسيس
نادي روتاري في دمشق، وقبل مردم بك الطلب على الفور، مشترطاً أن تكون
كافة المراسلات والاجتماعات باللغة العربية ليصبح النادي بذلك أول نادي
روتاري بالعالم يقر باللغة العربية لغةً رسمية له، أسوة بالماسونية الدمشقية
المعربة. تأسس النادي الدمشقي يوم ٦ أيلول في عام ١٩٣٨ وانضم إليه
على الفور كافة الماسونيين الدمشقيين وانتخبوا الطبيب أنسطاس شاهين من
جامعة دمشق رئيساً له، يعاونه السياسي الكبير نعيم أنطاكي ورئيس نقابة
المحامين سامي الميداني الذي أصبح لاحقاً رئيساً للجامعة السورية. نعيم
أنطاكي بدوره كان من مؤسسي الكتلة الوطنية في سورية وشغل منصب أول
وزير للخارجية بعد الاستقلال، وكان من مؤسسي منظمة الأمم المتحدة مع
رفيقه الماسوني فارس الخوري.

بعد خمس سنوات على تأسيسها افتتح أول فرع لنادي الروتاري في حلب،
وتبعه افتتاح مكتب في اللاذقية في حزيران من عام ١٩٥٤. أما مدينة حمص
التي احتضنت الماسونية يوماً، فقد افتتح أول فرع للروتاري فيها في شهر
كانون الأول من عام ١٩٥٩ أيام الوحدة مع مصر. في عام ١٩٤٤ تعاونت
المحافل الماسونية ونوادي الروتاري على محاربة وباء الملاريا الذي اجتاح

تكريماً لنادي الروتاري عام ١٩٥٥ في اليوبيل الذهبي على تأسيسه عالمياً، وكان هذا بفضل مدير إدارة البرق والبريد، الماسوني إبراهيم كنعان عضو محفل سورية ولبنان. لم يصدر أي طابع مماثل للماسون، وكلتا الجمعيتين أغلقت بمرسوم واحد صادر عن الرئيس محمد أمين الحافظ في شهر آب من عام ١٩٦٥. جمّد أعضاء الروتاري نشاطهم طوال أربع سنوات، وحاولوا العودة إلى العمل في عهد الرئيس البعثي الدكتور نور الدين الأتاسي، ولكن عند رفض الأخير لطلبهم، حلّوا نواديهم نهائياً في كانون الثاني من عام ١٩٦٩. وكما الماسون، عمدوا إلى إتلاف جميع أوراقهم طوعاً قبل مصادرتها.

الماسونية والسياسة السورية

في قوانين الماسونية، يمنع منعاً باتاً مناقشة الأمور السياسية والدينية داخل اجتماع منعقد في المحفل، ولكن معظم سياسيي سورية في النصف الأول من القرن العشرين كانوا أعضاءً في الماسونية، بعضهم كان محسوباً على فرنسا والآخر على الوطنيين. خمسة من أصل ستة وزراء عام ١٩١٨ على سبيل المثال كانوا ماسونيين، وكذلك جميع أعضاء حكومة الرئيس صبحي بركات عام ١٩٢٤، بمن فيهم الرئيس نفسه. بعدها بعام أصبح الماسوني الكبير أحمد نامي بك، المعروف بلقبه التركي «الداماد» (و يعني صهر السلطان) رئيساً للدولة السورية خلال الثورة السورية الكبرى. «الداماد» كان شركسياً من وجهاء مدينة بيروت، يبلغ الرابعة والأربعين من العمر، وقد درس في أهم مدارس باريس وإسطنبول

وانتسب إلى الماسونية عبر محفل لبنان التابع للشرق الأعظم الفرنسي يوم ٧ نيسان ١٩٠٦ [١]. كان جده مساعداً للقائد المصري إبراهيم باشا عند مجيء جيوشه إلى دمشق، أحب المدينة وأهلها وبقي في الشرق الأوسط بعد انسحاب الجيش المصري من سورية عام ١٨٤٠. أما والد الداماد فخري بك، فقد أصبح مديراً لبلدية بيروت، ثم حاكماً لنابلس في عام ١٨٥٥. عمل الداماد، زوج الأميرة ياسمين كريمة السلطان عبد الحميد الثاني، فور تسلمه الحكم بشكل وثيق مع أعيان الماسونية، وعيّن سبعة منهم في حكومته، فارس الخوري وزيراً للمعارف (محفل نور دمشق) وحسني البرازي وزيراً للداخلية (محفل العاصي) ولطفي الحفار وزيراً للتجارة (محفل سورية)، رشيد المدرس وزيراً للأشغال العامة (محفل النهضة)، ويوسف الحكيم وزيراً للعدل (محفل سورية ولبنان)، وحمدي نصر وزيراً للمال (محفل قاسيون) وواثق مؤيد العظم وزيراً للزراعة (محفل النهضة)[٢]. عند اعتقال ثلاثة من الوزراء من قبل سلطة الانتداب عين الداماد رؤوف الأيوبي وزيراً للداخلية خلفاً لحسني البرازي، وكان عضواً بارزاً في «محفل سورية»[٣]. وقد طالب الداماد الفرنسيين بتوقيع معاهدة مع سورية لتحديد الفترة الزمنية للانتداب وبانضمام بلاده إلى عصبة الأمم، ولكنهم رفضوا الاستجابه له. حكم الداماد سورية مع رفاقه الماسونيين طوال فترة الثورة ما بين عامي ١٩٢٥ و١٩٢٧، ثم سافر إلى باريس ليُدرس مادة العلوم السياسية في جامعة السوربون العريقة. وكان خلال فترة عمله في سورية لا يخجل من ارتداء وزرته الماسونية في بعض صوره الرسمية، وحاول استخدام الماسونية لتنصيب نفسه ملكاً على سورية، ولكنه فشل مرة أخرى.

في صيف عام ١٩٢٥ قدم خمسة أخوة من الماسون طلباً للحكومة السورية لتأسيس أول حزب سياسي في عهد الانتداب، يدعى حزب الشعب. طالب الحزب الجديد باستقلال سورية الفوري وغير المشروط، وبتأسيس جيش وطني وملكية دستورية توحد الاقطار العربية تحت العرش الهاشمي. كان مقر الحزب في دمشق وأسسه كل من الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وفارس الخوري ولطفي الحفار وجميل مردم بك وحسن الحكيم، جميعهم باستثناء الشهبندر أصبحوا رؤساء حكومات في وقت لاحق، وجميعهم كانوا أعضاء بارزين في الماسونية الدمشقية. لم يقتصر أعضاء الحزب الجديد على الأخوة الماسون، بل فتح أبوابه أمام كافة حاملي الشهادات الجامعية، من عمر الواحد والعشرين وما فوق، دون الدخول بدين المنتسب أو مذهبه أو عرقه. واشتمل حزب الشعب في أفكاره على القليل من الاشتراكية، قبل سنوات طويلة من نشوء حزبي البعث والاشتراكيين العرب. حتى لو كف الشهبندر عن نشاطه الماسوني الرسمي بعد عام ١٩١٤، لا يوجد شيء في العشيرة الحرة اسمه «ماسوني سابق»، فالماسوني يبقى ماسونياً ما دام ملتزماً تعاليم الأخوة ومبادئها، لا يفشي أسرارها ويعمل على تحقيق أهدافها، إما بالسرّ أو بالعلن. بعد خروج الشهبندر من السجن عام ١٩٢٤ دعي لحضور إحدى جلسات «محفل سورية» بصفة ضيف شرف بالرغم من غيابه عن أي نشاط ماسوني منذ عام ١٩١٤، وألقى خطاباً قال فيه: «قد أكون نسيت بعض مراسم المحافل ولكني لم أنسَ شيئاً واحداً أبداً، هو المبادئ التي تعلمتها من الماسونية»[٤]. مع ذلك لم يدم حزبه طويلاً، وقامت حكومة الانتداب بحظره بأمر من المندوب السامي موريس ساراي، الماسوني أيضاً، بعد اندلاع شرارة الثورة السورية الكبرى.

الهوامش

١- تيري ميليت، المريول والطربوش، ٤٣.

٢ حمادة، الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، ١٥٥.

٣ تيري ميليت، المريول والطربوش، ١٥٤.

٤ مجلة «كل جديد» (عدد آب ١٩٤٨).

سامي مروان مبيض

شرق الجامع الأموي

الماسونية الدمشقية ١٨٦٨-١٩٦٥

سامي مروان مبيض
شرق الجامع الأموي
الماسونية الدمشقية ١٨٦٨-١٩٦٥

ظهر أول محفل ماسوني في دمشق في نيسان عام ١٨٦٨، ونشطت الماسونية في المجتمع الدمشقي حتى صيف عام ١٩٦٥. في خلال ما قارب مئة عام، دخل في عشيرة البنائين الأحرار عدد كبير من نخبة رجال السياسة والعلم. بعد احتلال فلسطين عام ١٩٤٨، بدأت الماسونية تتراجع في المجتمع السوري، ووجهت إليها اتهامات بالجاسوسية والتآمر والسعي إلى فرض حكمها على المشرق العربي. الماسون الدمشقيون تركوا الباب مفتوحاً أمام كل هذه الاتهامات، وبقي السؤال: هل كانت الماسونية حقاً حصان طروادة للصهيونية العالمية؟ وهل كان ماسون دمشق يسعون حقاً إلى أن يحكموا العالم، على الرغم من أنهم لم يفلحوا حتى في حكم مدينتهم طويلاً؟ هل كانت الماسونية شراً في دمشق، أم تنظيماً أهلياً حمل أوزار سنوات من القهر والفشل والأحلام الضائعة؟ هل كان الماسون الدمشقيون رجالاً أفاضل يسعون إلى تطوير مجتمعهم، أم أن الماسونية استخدمتهم لتحسين صورتها في المشرق العربي؟